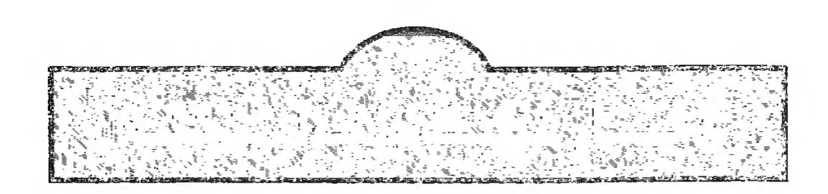


أشمودون





هاري ويستر



مؤسسة الانتشار العربي

2

أخبار غريبه وأسرار عجيبه



هاري وبستر



الغلاف : محمد شمس الدين



ص ب : ٥٧٥٢/ ١١٣ بيروت – لبنان

الطبعة الأولى

المحتويات

الفصل الخامس

مُسخاء أرض الفرص

الفصل السادس

ممسوسون وطوائف متعصبة في القرن العشرين

الفصل السابع

المجرمون الجهانيين

مقدمة

من المستحيل الاعتراف بقدرة بعض الناس على اجتراح المعجزات، وبالتالي فإن هذا الكلام قد يكون مربكاً وخصوصاً عندما نقرأ أخبار عن بعض المشعوذين الذين يدعون أنهم السيد المسيح مثلاً، ولا بد أن نتهمهم بالزيف والكذب، وخصوصاً أولئك الذين من بينهم يشعرون أو يدعون أنهم يمتلكون قوى غير طبيعية ومتميزة تدفعهم إلى التمادي في الترويج لها عن طريق استغلال القناعات الدينية وبإقناع أتباعهم أن يقلدوهم في حياتهم قدر إمكانهم.

بعض الحالات التي سنرى في هذا الكتاب تدلّ على استمرار مثل هذه القوى المزعومة حتى بعد موت حامليها.

الفصل الأول

المعجزات قد تحصل أحياناً

1

يوم الحساب حسب ويليم ميلّر

في ٢٢ تشرين الأول/أكتوبر عام ١٨٤٣، اجتمع جمعٌ غفيرٌ من الرجال والنساء على قمة تلّةٍ في ماساشوسيتس، يتقدمهم ويليم ميلر (William Miller) الذي كان قد توصل خلال السنوات الماضية، إلى نظريةٍ حول نهاية الكون وعودة السيد المسيح المخلص إلى الأرض بعد أن أمضى وقته في قراءة «سفر دانييل»، في التوراة مؤكداً أن هذا النهاية قد آن أوانها. فقام أحدهم بربط جناحي حبشٍ إلى ظهره مستعداً للطيران إلى الجنة، لكنه وقع أرضاً وكسر ساعده، بينما قام أتباعٌ آخرون بحمل مظلات تساعدهم على الطيران إلى حد أن إحدى السيدات ربطت حقيبة ثيابها بجسدها لترافقها في رحلتها نحو العلى. ويذكر التاريخ العربي أن عالماً عربياً في الأندلس، لم يكن يدعي النبوة وإنما كان عالماً حاول أن يطير بعد أن ربط أجنحة من الريش إلى خاصريه فوقع على قفاه ومات!

إحدى «الميلريات» صادفت الكاتب رالف والدو إيمرسون وصديقه ثيودور باركر، فسألتهما عن معلوماتهما حول نهاية

العالـم، فأجابها باركر، «ذلك لا يعنيني، فأنا أعيش في بوسطن».

حلّ منتصف الليل ولم يحصل الحدث المنتظر، فعاد الأتباع إلى بيوتهم مصدومين.

أحدهم كان قد وهب مزرعته لابنه «غير المؤمن» بهذه الخرافة، وعندما طالبه بإعادتها رفض رفضاً قاطعاً..

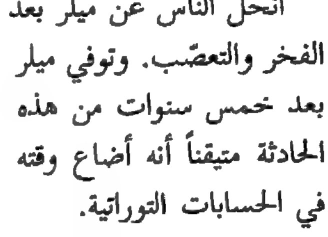
آخرون كانوا قد باعوا كل ما لديهم من متاع في هذه الدنيا وجلسوا يندبون حظهم.

وفي أوج هذه المآسي والكآبة، نزل الوحي المفاجىء على ميلر فأعلن أنه أخطأ في الحساب مستعيناً بالتقويم الميلادي بدلاً من التقويم اليهودي.. فأعلن أن موعد انتهاء العالم هو ٢٢ آذار/مارس القادم..

في ذلك اليوم أيضاً، اجتمع الأتباع، وانتظروا... اللاشيء.

انحلّ الناس عن ميلر بعد أن اعترف بزيفه راداً الأسباب إلى





الفخر والتعصّب. وتوفي ميلر بعد خمس سنوات من هذه الحادثة متيقناً أنه أضاع وقته في الحسابات التوراتية.

قلّة من هؤلاء المشعوذين كانوا يظهرون مثل هذه الصراحة.

ففي ١١٧٢، تقدم أعرابي مجهول من الخليفة

في اليمن وادعى النبوة، فطالبه الخليفة بدليل قاطع ووعده بأن يتبعه إذا تمكن من إقناعه، أقنعه. عندئذٍ طلب منه الإعرابي أن يقطع رأسه لكي يعيده بعد ذلك إلى جسمه. وافق الخليفة وأمر بقطع رأس الإعرابي الذي فشل طبعاً في البر بوعده.

كلمة، «المسيح» تعني باللغة العبرية المكرّس، وتعود إلى الاعتقاد اليهودي أن الملك داوود سيعود يوماً ليقود شعبه إلى النصر الأكيد. أعلن النبي أشعيا أن «طفلاً بيننا يولد»، وأن المسيح سيحمل «حمل القيادة على كتفه».

تاريخ نبوءة أشعيا يعود إلى عام ٧٠٠ قبل الميلاد حين اجتاح الآشوريون أرض بني إسرائيل وطردوا شعبها ونفوه.

ومنذ ذلك الوقت، اعتقد البعض أنهم «المسيح المنتظر» وأمروا أتباعهم بالسير على خطاهم إلى النصر والملك.. ولكن لم يحقق أي منهم أمانيه.

ساد الاعتقاد قديماً أن العام ١٠٠٠ الميلادي هو الأخير من عمر

في معبد كوفوكو في نارا اليابانية، قرر أحد الكهنة أن يلهو وزملاءه فعلق إعلاناً على باب المعبد يؤكد أن تنيناً سيخرج منه في الثالث من آذار/مارس.

اهتم الناس بالخبر وتناقلوه خائفين، حتى كان ذلك اليوم إذ تحلقوا حول المعبد وانتظروا.. عند الظهر أظلمت الدنيا وأمطرت السماء وومض البرق. صدم الكاهن اللاهي عندما شاهد ضباباً يأخذ شكل التنين يخرج من المعبد ويصعد إلى السماء... هذه القصة واردة في كتاب الراوي أكوتاغاوا..

الإنسانية، وقامت الحروب الضارية ـ كالحروب الصليبية مثلاً ـ لنشر الإيمان قبل نهاية العالم... ولم ينتهِ.

بين المشعوذين الكذبة نساءٌ أيضاً أشهرهن على الإطلاق كانت المشعوذة الجرمانية «مارغاريت بيتر» (Margaret Peter). التي ادعت النبوة.

صلب مارغاريت بيتر

في الأسبوع الذي تلا عيد الفصح سنة، ١٨٢٣، أعلنت مارغاريت بيتر (٢٩ عاماً)، التي طالما قدّسها أتباعها، أنها قررت أن «تُصْلَبَ» لقهر الشيطان وقتله. وطلبت شقيقتها اليزابيت فوراً أن تصلب مكانها وبدلاً منها. ولتظهر جدّية طلبها، ضربت رأسها بمطرقةٍ خشبية وصرخت: «أوحي إليّ أنه على اليزابيت التضحية بنفسها»، وضربت أختها على رأسها، هبّ أخوة اليزابيت وأشبعوها ضرباً.. كانت تردّد «لا تخافوا سأحييها من الأموات» ولكن ضربةٌ أخيرةٌ قطعت جمجمة اليزابيت إلى نصفين.

الآن، يجب أن أموت.. أصلبوني».

هذا كان طلب مارغاريت وعندما جهز الصليب، أرسلت أختها سوزانا لتحضر المسامير، ثم أمرت أن تدق هذه المسامير في كفيها وفي قدميها مطمئنة أخوتها: «لا تخافوا.. سأقوم في اليوم الثالث». ثم أمرت أن تدق المسامير في كتفيها وفي ثدييها.

إحداهن، تدعى أورسولا، غرزت سكيناً في قلبها لكنه اصطدم بأحد أضلاعها. لم يتحمّل كونراد، أخوها، هذا المنظر فتناول مطرقةً وكسر جمجمتها.

ذهب التلاميذ العشرة لتناول الغداء «مطمئنين» بأن الأيام الثلاثة ستمضي سريعاً لتعود اليزابيت ومارغاريت إليهم ثانيةً. وكان ذلك يوم السبت. وفي الثلاثاء التالي، تحلقوا حول الجثتين وصلّوا، لكن صلواتهم ذهبت أدارج الرياح إذ بقيت الجثتان دون أي ملامح للحياة. في ذلك الوقت، كان كاهن البلدة قد علم بالأمر فانتظر حتى الثلاثاء وأبلغ الشرطة، فقبضت على التلاميذ الذين حوكموا في زوريخ، في كانون الأول/سبتمبر وسجنوا

مقتل جوانا ساوثكوت

أحياناً يتراجع «المشعوذون» - ذكوراً وإناثاً - عن زيفهم ونبوءاتهم، ولكن أتباعهم لا يتراجعون!.

عندما كانت الصبية جوانا ساوثكوت (Joanna Southcott) على فراش الموت عام ١٨١٤، أعلنت لأتباعها أن ما فعلته في حياتها أصبح واضحاً لديها أنه كان وهماً عندما اقتنعت أقنعت أتباعها أنها ستلد الطفل المذكور في نبوءة أشعيا، رغم كونها عذراء، وعندما ذكرها أحد الأتباع أنها تحمل المسيح في أحشائها، تحولت دموعها فجأةً إلى ابتسامةٍ صغيرة.

بعد موتها، نفذ الأتباع ما أوصتهم به، فقد أبقوا جسدها دافئاً وحشدوا جيشاً صغيراً من الأطباء من أجل إخراج الطفل «المسيح» من رحمها. وما إن شق الجراحون الجلد حتى انبعثت رائحة اللحم الميت في الغرفة، مما حدا بعض الأتباع إلى إشعال نار الغليون وتدخينه لتغطية هذه الرائحة الكريهة. فُتِحَ الرحم ولم يجد الأطباء أي أثرٍ لجنين.

أيملك موضع العبادة حقولاً من الأفكار أقوى من المواضع الأخرى؟ أيفسر ذلك قصة الدمية الغريبة التي ينمو شعرها البشري؟

مصدر القصة شمال اليابان، وابتدأت عام ١٩٣٨. في ذلك التاريخ، نقل أيكيشي سوزوكي دمية من السيراميك إلى معبد في بلدة مونجي ـ سايواي شو ليحافظ عليها. فهذه الدمية تخصّ أخته المحبوبة كيكو التي توفيت قبل تسعة عشر عاماً بعمر الثالثة، وحفظها سوزوكي بعناية في صندوق يحتوي أيضاً على رماد أخته الميتة.

غادر سوزوكي بلدته ليكون في عداد الجيش الياباني إبان الحرب العالمية الثانية، ولم يعد يتفقد الدمية حتى عام ١٩٤٧. وعندما فتح الصندوق بحضور كاهن المعبد، وجدا أن شعر الدمية نما وطال حتى كتفيها. وعندما كشف أخصائي في الجلد من كلية الطب في جامعة هوكايدو، أكد أنه شعر طبيعي.

وضعت الدمية على المذبح واستمر شعرها في النمو. تحول المعبد إلى محجّة يقصدها من آمن أن الدمية هي قناة اتصال روحي مع بوذا.

يعتقد كاهن مونجي ـ سايواي شو أن روح الطفلة ماتزال حية بطريقة ما داخل الدمية التي أحبتها كثيراً.

قال أحد الأطباء: «لتنصب عليّ اللعنة إن لم يكن الطفل قد خرج من هنا». ازدادت آمال التلاميذ بهذا الكلام، إذ عنى الطبيب أن الطفل انتقل إلى الجنة. ثمة أتباع لجوانا ما يزالون يبشرون بها حتى اليوم، ويطلقون على أنفسهم «جمعية الدواء الناجع» (Panacea Society)، وهم مقتنعون أن خطايا العالم ستختفي ما إن ينفتح صندوقها حيث أخفت آثارها المكتوبة والسرية.

الناسك الطائر

ولد الطفل جيوسيبي ديزا (Giuseppe Desa) في قرية أبوليا الإيطالية عام ١٦٠٣، وأطلق عليه لقب «الفم المفتوح» إذ كان فمه يبقى مفتوحاً ومتدلياً. وعندما وصل إلى عمر السابعة عشرة دخل سلك الكهنوت عند الكبوشيين لكنه طرد بعد ثمانية أشهر لعجزه عن التركيز الذهني، فانتقل إلى دير الرهبان قرب كوبيرتينو (Copertino) ليعمل هناك سائساً للإسطبل، فتنسك وأصبح في الثانية والعشرين راهباً فرانسيسكانياً عامل نفسه بقسوة، جوّعها وضرب جسده بالسياط ليصل إلى شهرة القداسة.

وفي أحد الأيام، وأثناء الصلاة بعد القداس، ارتفع عن الأرض طائراً وحطّ على المذبح تسكنه حالةٌ من النشوة. لم تحرقه نار الشموع أبداً، وبعد لحظات طار ثانيةً وعاد إلى مكانه المعتاد.

أُرسِلَ إلى قداسة البابا ليراه، فأمسكوا به هناك جذلاً بعد ارتفاعه في الهواء. كان طيرانه يتلازم دائماً بحالةٍ من النشوة العارمة، يطلق عليها الهندوس اسم «سامادي» (Samadi). توقفت ظاهرة ارتفاعه عن الأرض عندما عمد أحد رؤسائه على توبيخه واضطهاده، لكنه استعاد قواه الروحية الطيبة وارتفع ١٥ ياردا ليقبل صورة العذراء مريم المعلقة فوق المذبح، وكان ذلك عندما استقبله سكان بلدة أسّيزي (Assisi) بحفاوةٍ وتكريم وفي حضور كبير رؤساء الرهبنة.

لم يكن طيران «القديس جوزيف» ـ كما أطلق عليه ـ مقتصراً على النشوة الدينية، فمرّة سمع موسيقى الناي منبعثة من بعض الرعيان فرقص فرحاً حتى ارتفع فوق المذبح دون أن يوقع أي شمعة من مكانها. وكان قادراً على التحكم بقدرته الخارقة إذ كان يرتفع



الناسك الطائر

إلى أي مكان يطلبه منه الرهبان، ويرفع معه الأشياء الثقيلة.

تقول إحدى الروايات إنه رفع صليباً خشبياً ثقيلاً عجز عشرة رجال عن رفعه لتثبيته في مكانه. كما استطاع أن يجعل الآخرين يطيرون معه، فمرّة طار ممسكاً بشعر نبيلٍ مريضٍ وبقي في الهواء لربع ساعة.

على فراش الموت، قال الطبيب إن «الأب جوزيف» كان مرتفعاً عن السرير ست إنشات. ومات وهو تقول إنه يشم رائحة الجنة.

ماذا تقول عن هذه الظاهرة؟

يناسبنا اعتبار الرواية كلها من بنات الخيال أو الكذب أو التنويم المغناطيسي أو الهيستريا الجماعية، ويمكننا إنكار ٩٥ بالمئة من الأعاجيب التي يجترحها القديسون دون أن يرف لنا جفن. لكن

> **تنتشر المذاهب المؤمنة بالأطباق الفضائية الطائرة في كل أنحاء العالم. وتؤمن معظمها بوجهة نظر إريش فون داينكين المثبوتة في كتابه «عربات الآلهة» والتي تقول إن المفهوم البشري لله ابتدأ حين زارنا غرباء من الفضاء الخارجي في إحدى حقبات ما قبل التاريخ.**
>
> **وصلت أخبار الأطباق الفضائية الغريبة إلى أوجها في الانتشار الإعلامي في الأربعينات، إذ قامت موجة من الأخبار تتحدث عن ظهور هذه الأطباق وهبوطها الغامض على الأرض. وخلال الخمسينات، انتشرت الروايات المعتمدة الخيال العلمي تتحدث عن الأعراق الفضائية الغريبة المتحلقة حول الأرض تخطط لغزوها وتدميرها، وظهرت سلسلة من الدوائر في حقول الذرة مصنوعة بالذرة الميت، فقيل إن هذه آثار هبوط السفن الفضائية. المؤمنون بمؤامرة المخلوقات الفضائية لتدمير الأرض يقولون إن شهود هبوط الأطباق الفضائية يتلقون التهديدات من الرجال بالبذات السوداء، دون أن يعرفوا إن كان هؤلاء مخلوقات فضائية متنكرة أو عملاء للحكومة.. لربما كانوا من الفئتين معاً.**
>
> **تحاول المذاهب المؤمنة بالمخلوقات الفضائية تسليط الضوء على تقدمها العلمي، ويؤكد بعضهم أن هذه المخلوقات بذرت بذار الحياة الأرضية هذه قبل ملايين السنوات، وهم يعودون الآن ليروا نتاج تجاربهم.**

ثمة أدلة تقول إن ملوكاً وفلاسفةً شهدوا طيرانه. بعد موته، أجرت الكنيسة في إيطاليا بحثاً حول هذه الظاهرة استمر وقتاً طويلاً قبل أن تقتنع بقداسة هذا الناسك، فطوّبته بعد ١٠٤ سنوات من موته.

أعاجيب القديس ميدار

بين عامي ١٧٢٧ و١٧٣٢، حصلت حوادث غريبة في كنيسة القديس ميدار الباريسية (Saint - Médard)، قد لا يصدقها العقل البشري الحديث، لكن كميةً كبيرةً من الوثائق وتأكيدات الأطباء وأقوال أعيان المدينة تشهد بصحّة ما حصل.

بدأت الأعاجيب مع دفن شماس باريس، فرانسوا دوباري (Francois De Pâris) المشهور بقداسته وبقدراته الشفائية، ففي عام ١٧٢٧. بكى آلاف الناس وراء نعشه حتى وصلوا مثواه الأخير في مقبرةٍ قرب مذبح كنيسة القديس ميدار. هناك، سجيّ القديس وتقاطر الناس يلقنون على نعشه الورود الملوّنة. في ذلك الحشد، كان ثمة رجل اصطحب ولده ذا القدم المفتولة. ولما وصلا إلى النعش وجثما بقربه، أصيب الولد بالتشنجات في أنحاء جسمه، فنقله الناس إلى جانبٍ هادىءٍ من جوانب الكنيسة. فجأةً، توقفت هذه التشنجات واختفت آلامها ليفتح الصبي عينيه ويقف على قدميه.. واجتاحته موجةٌ سرورٍ عارمةٍ إذ لاحظ شفاء قدمه المختلة فأخذ يرقص ويقفز. لم يصدق الأب بادىء الأمر أن قدم ابنه شفيت تماماً.. وعندما رآها طبيبٌ كان موجوداً وعاينها بدقة، أعلن أنها أقوى من القدم الصحيحة.

انتشر الخبر سريعاً، وخلال ساعات، امتلأت الكنيسة وعج فناؤها الخارجي بالمرضى والبرص والمكفوفين والمعوقين. كان أتباع

هذا الشماس فقراء، إذ يفضل الأثرياء أن يسلموا أمورهم الدينية لليسوعيين المثقفين والمتحضرين.

شفي المعوقون واختفت الأورام والسرطانات المستشرية في الأجسام دون أن تترك آثاراً..

أعلن اليسوعيون أن هذه الأعاجيب باطلةٌ أو هي من عمل الشيطان، ورفض الأغنياء أن يصدقوا أن أمراً غير طبيعي يحصل في هذه الكنيسة الصغيرة، لكن بعض المثقفين دفعهم الفضول فعادوا من هناك مصدومين، وحاولوا تفسير الأمور كل على هواه كأن يردوها إلى أسباب طبيعية. دايڤيد هيوم (Hume)، الفيلسوف العظيم أكدّ في أحد كتبه أن المعجزات تحققت فوراً وأكدها قضاة سألوا شواهد مثقفين وذوي حكمة.

أحد المحققين في هذه القضية محام يُدعى لويس أدريان دوبايج (Louis Adrian De Paige) الذي سألَ القاضي لويس بازيل كاريّه (Louis - Basile Carré) عن رأيه فأجابه أنه مقتنعٌ بزيف كل الادعاءات، لكنه وافق على مرافقته إلى الكنيسة ليظهر صلاح نظريته. توجها إلى هناك يوم ٧ أيلول/سبتمبر ١٧٣١، وخرج القاضي من الكنيسة رجلاً آخر فقد فضّل أن يُسجن على أن ينكر ما رآه في ذلك اليوم.

أوّل ما رآه كان نسوةً يحاولن أن يفتلن أجسادهن بشكلٍ لولبي، فأخبره المحامي أن هذا ضروري للنساء اللواتي يردن وهب أنفسهن للشماس وقواه الأسطورية. ورأى رجالاً يضربون نَساءً ويرشقونهن بقطعٍ خشبيةٍ وحديديةٍ ثقيلةٍ، ونساءً أخريات تتكسر فوق ظهورهن الصخور. فتاةٌ واحدةٌ كانت عاريةً حتى وسطها حول حلمتيها أسلاك من الحديد يشدّها رجل ويفتلها بعنف.

قال المحامي للقاضي إن النساء هنا لا يشعرن بالألم أبداً بل يطلبن مزيداً من التعذيب، وإن كثيراتٍ منهن شفين من أعطال جسمانية بفعل هذا العلاج العنيف.

بعد ذلك، شاهد القاضي فتاةً جميلةً في السادسة عشرة من عمرها، تدعى غابرييلا مولر، مستلقية على الأرض. وقف فوقها أربعة رجال يحملون رماحاً حديدية مقوّسة غرزوها في معدتها دون أن ينزف الدم ودون أن تتألّم الفتاة. وعندما انتزعت هذه الرماح، لم يجد القاضي آثاراً لجروحٍ أو ندوب. بعد ذلك، تناول الرجال رفوشاً حادةً وضعوها على الثديين وجعلوا يشدون بكل قواهم، فابتسمت الفتاة وكأن شيئاً لم يكن.

استمر تعذيب الفتاة حتى كان أن جثمت وأدخلت رأسها في اللهب المستعر. أحسّ القاضي بالحرارة تصله إلى حيث هو، لكن وجه الفتاة بقي كالمرآة اللامعة.

تكررت زيارات هذا القاضي حتى تحصّل لديه مادة كافية لكتابٍ نشره وأهداه إلى الملك لويس الخامس عشر، الذي صدم وأمر بسجن القاضي.

في عام ١٧٣٢، أقفلت السلطات الباريسية أبواب الكنيسة، لكن أتباعها استطاعوا تحقيق معجزاتهم أينما وجدوا وتابعوا نشاطهم لسنوات عديدة.

شفاء عجائبي

تزوجت جوزيفين هاور (Josephine Hoare)، ٢١ عاماً، لكن التهاباً مزمناً في الكلى أصابها بعد ستة أشهر من الزواج. أخبر الأطباء عائلتها أنها لن تعيش طويلاً، فأصرت والدتها على أن تأخذها إلى لورد (Lourdes).

في ذلك المقام الفرنسي الشهير، شربت جوزيفين من مياه النبع العذبة والباردة، لكنها لم تحسّ بأي تغيرات تطالها. وعندما عادت إلى منزلها، أعلن الطبيب مصدوماً شفاءها من المرض. عادت القدمان إلى طبيعتهما، وانخفض ضغط دمها ليرفع من مستوى نشاطها، لكن الأطباء حذروها من الحمل إذ سيؤدي إلى سوء حالها من جديد.

بعد سنوات، زارت جوزيفين وزوجها مقام سيدة لورد، حيث أضاءت شمعةً شكر. وبعد عودتها، فاجأتها آلام في ظهرها، لكن الطبيب نفى أن يكون ذلك المرض قد عاد بل بشرها أنها حامل في شهرها السادس...

أنجبت جوزيفين طفلاً ذكراً وبقيت بصحة جيدة جداً. نبع سيدة لورد أنقذها مرتين!.

البحث عن الطفل الضائع

في العام ١٩٣٣، فقد صبي في السادسة من العمر من بيته في بلدة مياج (Miege) في منطقة الألب السويسرّية. وبعد حملة بحثٍ فاشلةٍ، كتب العمدة إلى الأب ميرميه (Mermet) الذي طالما ساعد الشرطة في بحثها عن المفقودين. طلب الأبُ شيئاً استعمله الطفل الضائع وسأل عن وصفٍ لآخر مكان شوهد فيه وطلب خريطةً للمنطقة المجاورة، وذلك من أجل أن يقوم بعمله خير قيام. استخدم رقاصاً وعصاً للاستنباء وأعلن أن طائراً كبيراً من الجوارح حمل الطفل بعيداً إلى الجبال، واضطر إلى الهبوط مرتين وإيقاع حمله للراحة والتنشط.

لم يكن من أثر للطفل في المكان الأول الذي أشار إليه الأب

ميرميه، وأضاع انهيار ثلجي مساعي الباحثين في المكان الثاني، وساد الاعتقاد أن الأب مخطيء في رؤياه.

لكن الثلج ذاب بعد أسبوعين ليكشف عن جثة الطفل المفقود فقد وجدها بعض الحطابين. لم يتمكن الطائر المفترس أن يفترس كامل الجثة بسبب العاصفة الثلجية التي أخفت الآثار والدلائل.

أظهر البحث الطبي والعلمي أن ثياب الطفل وحذاءه لم يلتقيا بالأرض حيث وجدت الجثة، فلا بد أنه وصل إلى هذا المكان من طريق الجو، ضحيةً للنسر الجارح.. لهذا، قدم والد الطفل المفجوع اعتذاره للأب ميرميه لأنه شكك في ما قال.

يؤمن بعض الجماعات أن الهرم الأكبر في مصر. يحمل في قياساته حقائق كثيرة وتدعي بعض المذاهب المسيحية أن بني إسرائيل ـ لا المصريين ـ هم بناة هذا الهرم. وبحسب هذه النظرية، فإن ممرات الهرم الداخلية بقياساتها الصحيحة هي نموذج ثلاثي الأبعاد لتاريخ العالم حتى ولادة المسيح. بمقاربة علمانية رياضية، ضعفا طول قاعدة الهرم مقسومة على ارتفاعه تساوي تقريباً «(باي)» (النسبة بين طول محيط الدائرة وقطرها). صعبٌ برهان هذه المقولات إذ تعتمد طبيعة الوحدات القياسية الصحيحة على الحدس، لهذا يستمر الإشكال حول حجم الهرم الحقيقي وفق أي وحدة قياس.

مذهب أنكلو ـ إسرائيلي يدعي إن الأنكلوساكسون في بريطانيا وأميركا هم البقايا الفعليون للإسرائيليين. وأنهم هم بناة الهرم كإنذار على مجيء المسيح وانتهاء العالم في ٢٠ آب/ أغسطس ١٩٥٣. وحين مرّ هذا التاريخ هادئاً، أحرج الأنكلو اسرائيليون لعدم صدق نظريتهم فأطلقوا نظرية ثانية هي أن رسالة الهرم ليست مباشرة بل هي مجاز ديني.

راسبوتين، «القديس الخطيء»

انتشلت جثة راسبوتين من نهر نيڤا (Neva) المتجمد في أول كانون الثاني/يناير، ١٩١٧، أي بعد موته بثلاثة أيام.

كان غريغوري راسبوتين وجهاً مشهوراً في روسيا، وبعد موته حيكت عنه الأساطير وأمسى رمزاً للشر والشهوة، وانتشرت المقالات الصحفية التي تفصل أيام راسبوتين العابقة برائحة الخمرة، ولياليه الحبلى بالشبق والشهوة، والتي تروي كيف أقنع القيصر وزوجته بقدراته العجائبية، والتي تتهمه بأنه كان من سبب الثورة الروسية وانهيار حكم آل رومانوف، والواقع أن كل هذا خيال لا يمتّ للحقيقة بصلة.

حقيقة هذا الرجل أنه كان فعلاً يتمتع بقدرات عجائبية وبقوى غريبة. لم يكن قديساً أبداً. فحكايات الإدمان الكحولي والبراعة الجنسية المنسوبة إليه كانت حقائق ملموسة دون شك. لكنه لم يكن شيطاناً كذلك!

ولد راسبوتين في قرية پوركروڤسكو (Pokravskoe) في العام ١٨٧٠ من أبٍ فلاحٍ مقتدر. واشتهر منذ صغره بالوحشية وعدم التمدن حتى اعتكف لأربعة أشهر في أحد الأديرة متنسكاً ومتأملاً، وبقي طوال حياته مهووساً بالدين. تزوج في التاسعة عشرة من عمره وأصبح سائق عربة ماهراً، لكن النداء أتاه ثانيةً فترك عائلته وتجول في سيبيريا كراهب جوال. وعندما عاد، كان رجلاً مختلفاً متمتعاً بقوى مغناطيسية غريبة، ففتن أهل قريته وحول قسماً من بيته إلى معبد أمّه الناس حتى غضب منه القسيس المحلي وعمل على طرده من القرية.

إلى جانب بصيرته النفّاذة في معرفة ما خفي من الأمور، نمت

فيه قدرة عجيبة على الشفاء. فكان يجلس أو يجثم قرب سرير المريض ويصلّي ثم يضع يديه على مكان الألم ليشفيه سريعاً.

وصل إلى مدينة سان بطرسبرج عام ١٩٠٣، تسبقه شهرته كعامل عجائبي، ودخل إلى قصور الأرستقراطيين النبلاء فتقبلوه برغم سلوكه الهمجي.

في عام ١٩٠٤، رزق القيصر وزوجته الكسندرا بطفلٍ ذكرٍ هو ألكسي، ليرث العرش، لكنه ولد مصاباً بمرض النزاف الذي يمنع تخثر الدم ويؤدي إلى الموت بسبب النزيف المتواصل من جراء جرح صغير.

وفي ١٩٠٧، أي في سن الثالثة، جرح ألكسي نفسه جرحاً

في أحد أيام تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧١، كان أحد القطارات يقترب من إحدى المحطات تحت الأرض في مدينة لندن. وفجأة، رمى أحد الأشخاصِ بنفسه أمام القطار. ضغط السائقُ المرعوب على المكابح متأكداً أن القطار لن يتوقف قبل أن يحطّم الرجل تحت عجلاته الحديدية. لكن هذا القطار توقف عجائبياً، واستلزم رفع المقطورة الأولى لانتشال الرجل الجريح الذي لم تمرّ العجلات فوقه... فعاش.

وتكشف فيما بعد أن هذا الرجل مهندس معماري موهوب يعالج من إنهيار عصبي. أما انقاذه من الموت فكان صدفة محضة، إذ تبيّن أثناء التحقيق أن القطار لم يتوقف بفعل المكابح التي يتحكم بها السائق، بل قبل ثوانٍ معدودة من أن يرمي الرجل بنفسه على السكة الحديدية قام أحد الركاب بشد قبضة الأمان التي تؤدي مباشرة إلى تشغيل المكابح. لم يعطِ الرجل مبرراً لشده هذا المقبض، وقاضته وزارة النقل إذ لم يكن ثمة مبرر لاستخدام أنظمة الطوارىء.

كبيراً أدى إلى نزيف متواصل رفع حرارته وهدد حياته. وقف الأطباء مذعورين عاجزين عن إنقاذ الوريث الأمبراطوري، فقامت الأمبراطورة الكسندرا بالاستجارة براسبوتين. وصل هذا سريعاً، ودخل الغرفة مطمئناً الأم على ابنها، وجلس قربه ممرراً يده على جبهته وأخذ يكلمه بصوت دافيء حنون، ثم صلّى صلاةً قصيرة وسكت. ذهب الطفل في نومٍ عميقٍ، وتوقف النزيف نهائياً.

بدأت العائلة المالكة تميل إلى راسبوتين، ووقع نيكولاس الثاني تحت تأثيره، ما أثار حفيظة الطبقة الأرستقراطية، وما حدا أعداءه إلى تحميل راسبوتين مسؤولية السياسة القيصرية الخاطئة.

تنبه القيصر لهذا الأمر فطلب من راسبوتين أن يترك المدينة. وبعد أيام، وقع الأمير فعاد إليه النزيف ورقد يصارع الموت فاتصلت الأمبراطورة براسبوتين، وما إن كلّم الطفل حتى توقف النزيف وعادت إليه الحياة.

جرّت الحرب العالمية الأولى الويلات العسكرية والسياسية على روسيا، كانت بدايتها غريبة: فقد طعن راسبوتين بسكين سيدةٍ مجنونةٍ في اللحظة نفسها التي أطلق فيها النار على الأرشيدوق فرانز فيرديناند في سارايفو.

رسم متآمرون نهاية راسبوتين في آخر أيام ١٩١٦، إذ دعاه الأمير فيليكي يوسوپوف إلى قبوه وأطعمه كعكاً وسقاه خمراً مسمومين وأطلق عليه النار في ظهره ثم ضربه بقضيب حديدي، لكنه بقي على قيد الحياة حتى حين رماه القتلة في نهر النيڤا من خلال حفرةٍ في الجليد.

بين أوراقه، وُجِدَت رسالة غريبة موجهة إلى القيصر، كتب فيها أن إحساسه يدلّه أنه سيموت ميتةً عنيفةً قبل الأول من كانون

الثاني/يناير ١٩١٧. وإنه لو قتل على يد الفلاحين، سيطول عهده لسنوات طويلة، وإن قتل على يد النبلاء، كما قتل فعلاً، «فلن تعيش ولن يعيش أي من أقربائك وأولادك أكثر من عامين».

كان محقاً.. فقد قتل القيصر وعائلته في تموز/يوليو ١٩١٨.

الفصل الثاني

بانتظار الملك - المحارب

٢

المتصوف ايكهارت واخوان الروح الحرة!

أمضى معظم المتصوفين العظام حياتهم في رعاية الكنيسة، لكنهم ما آمنوا يوماً بضرورة هذه الكنيسة من أجل «الخلاص». فالإنسان مكينٌ من معرفة الله مباشرةً دون كهنةٍ وأسرارٍ مقدسةٍ.

بعض المتصوفين ـ أمثال المتصوف مَيسر إيكهارت (Meister Eckhart) في القرن الثالث عشر ـ شارف على أن يُرمى بالحرم الكنسي أو أن يحرق على الصليب بسبب نظرياته وادعاءاته الغريبة حيث ادعى أن الإنسان يستطيع الاتصال بدون واسطة وأنه ليس هناك خطيئة. لأنه إذا كان الإنسان حرّاً فهو إذاً مُخَيَّرٌ. وإذا اختار أن ينفي تهمة الخطيئة عن أمرٍ ما ـ كالزنا مثلاً ـ فليس هناك سلطة قادرةٌ على اتهامه بالخطيئة وارتكاب المعاصي.

يعرف أتباع هذا المذهب بـ «أخوان الروح الحرّةُ» (Brethren Of Free - Spirit).

هل كان يسوع مسيحاً؟

قد يبدو جواب هذا السؤال واضحاً وجلياً.

يعتبر النصارى يسوع مسيحاً، أو هم يعتبرونه «المسيح». ولكن هل يوافقهم يسوع على هذا الرأي؟

ربما لا. فعندما أخبره تمليذه بطرس: «ينادونك المسيح»، طلب منه يسوع الصمت. هذه «الخبرية وأخبار كثيرة أخرى غيرها طرحها بعض المتطفلين وانتشرت وراحت بين مجموعة من المشعوذين» وخصوصاً عندما بدأوا يخلطون بين الأساطير والروايات التوراتية والواقع كما سيرد ذكره:

بعد الغزو الآشوري، أصبح اليهود شعباً مضطهداً من قبل شعوب تفوقه قوّةً: البابليون والمصريون القدماء والرومان. وللسبب نفسه فقد آمن البريطانيون مثلاً بعودة الملك آرثر الذي سيخلصهم من نير الغرباء.

يدعي المؤرخ جوزيفوس أن يسوع واحدٌ من أنبياء عبرانيين عدّةً اعتُقِدَ أنهم «المسيح»؛ ويورد هذا المؤرخ بعضهم، ليصفهم «بالدجالين» وبمهيجي الشعور الديني العام. ويصف يسوع الحقيقي بأنه رجلٌ صغيرٌ محدودب الظهر أصلع الرأس: «طوله ستة أقدام، جليل الوجه جميل الأنف مجعد الشعر بلون البندق». ولذلك فهو يتهم في كل الكتابات التي تناولت يسوع بأنها من خيال المسيحيين المتأخرين والتي أدخلت تغييرات على كل نصّ لا يتفق ونظرتهم الخاصة إلى «المسيح». ولذلك فإن هذا المؤرخ يتساءل إذا كان يسوع رفض كرسي القيادة العسكرية، فلم أثار كل هذا الضجيج؟ والجواب هو إعلانه قرب نهاية العالم التي ستحصل

خلال حياة الناس الأحياء الآن. لهذا طلب من الناس ألا يفكروا بغدهم إذ أن الله سيؤمن لهم كل شيء. ويتابع المؤرخ جوزيفوس نظرياته بقوله إن اليهود أنفسهم هم الذين كرهوا يسوع وأنكروه، وليس المحتلين الرومان كما اعتبره الصديقيون ـ محبو الحضارة اليونانية ورفضوا مبدأ الحياة بعد الموت ـ متعصباً دون ثقافة. وكذلك اغتاظ الفريسيون الذين كانوا يعتبرون أنفسهم حماة القانون ـ من هجوم يسوع عليهم واتهامه إيّاهم بضيق العقل والتقليد.

«النريلوت»، من جانبهم، أرادوا رمي المحتلين الرومان من فلسطين فضاق صدرهم بمسيح يبشر بالسلام والمحبّة. عندما كان يسوع خارج المدينة، أورشليم، يبشر في الأرياف وفي الحقول، لم يُقلِق أحداً. لكن عندما دخل القدس على حماره محققاً نبوءة أشعيا، وعندما استقبله سكانها بحماسةٍ زائدة، تنبّهت إليه وإلى خطره المؤسسة اليهودية.

وما إن قام بطرد صرّافي المال في المعبد حتى قبضوا عليه في الليلة نفسها سرّاً تجنباً لردة فعل الشعب.

بين الأناجيل الأربعة، وحده إنجيل يوحنّا يفصل ما حصل. حين مثل يسوع أمام قيافا، سأله هذا عن تعاليمه، فحوّله يسوع إلى من سمع منه التبشير، هذا ما أغاظ كبير مستشاري قيافا، فتقدم منه وصفعه في وجهه طالباً منه عدم الخروج عن نص السؤال بهذه الوقاحة.

في الأناجيل الثلاثة الباقية، يؤكد «يسوع» أنه «ابن الإنسان» الذي سيجلس عن يمين الرب الإله، رداً على سؤالٍ حول ما شاع أنه ابن الله.

وفي إنجيل يوحنا أيضاً، يسأله بيلاطس البنطي إذا كان ملك اليهود، وتأتي إجابة يسوع أن مملكته ليست في هذا العالم ـ أي يؤكد للبنطي أن ليس له أطماع في الزعامة السياسية. «أتيت هذا العالم لأنشر الحقيقة»، يقول يسوع الناصري، ولا يحمل هذا القول أي إشارة إلى كونه المسيح.

طلب اليهود من البنطي صلب الناصري، ورفضوا منحه عفواً بمناسبة الفصح اليهودي، فمات على الصليب كما مات غيره من الأنبياء.

سمعان بار كوشبا

قبل الألف الأول، كان ثمة أنبياء عدّة. ففي عام ١٣٢ ميلادي، قاد يهودي يدعى سمعان بار كوشبا ثورةً في وجه

منذ لقاء سكان الجزر الميلانيزية في المحيط الهادىء بالمسافرين الغربيين، طوّروا ما يطلق عليه «مذاهب البضائع». والبضائع بحسب لغة هؤلاء، هي الهدايا التي يتلقونها من الزوار.
أول اتصال تم حين وصول الكونت الروسي نيكولاي ميكلوهو ـ ماكلاي في العام ١٨٧١. استقبل كالفاتحين بسبب حمولته الغريبة ـ الفرقاطة الروسية ـ وهداياه التي بهرت هؤلاء المتخلفين عن ركب الحضارة. تولى التجار الألمان ورجال الإرساليات المسيحية تقوية إيمان أهل هذه الجزر، لكن هؤلاء اعتبروا القادمين بالهدايا هم الأخيار وغيرهم الأشرار، دون الالتفات إلى الهدايا الروحية التي قد يتلقونها.

في ١٩٤٠، بنى الأميركيون قاعدة «حربية» في جزيرة تانا الميلانيزية، فأخذت الطائرات تهبط وتقلع تاركة خلفها أجهزة راديو وعلب البيرة وحاجيات غريبة. راقب سكان الجزر

الرومان في فلسطين عندما علم بنيّة الأمبراطور هادريان بناء معبد لجو بيتر على أنقاض المعبد الذي دمّره تيتوس. أحد تلامذة التلمود المشهورين الحاخام أكيڤا، أقنع سمعان أنه المسيح المنتظر، فتصرف هذا الأخير على أنه فعلاً المسيح اليهودي، وحرّر البلدات والقرى من نير الرومان، وسك النقود باسمه وعليها وجهه وبنى قلعةً سكن فيها.

احتاج قمع هذا التمرد إلى ثلاث سنوات ونصف من الحرب وإلى تدمير خمسين قلعةً و٩٨٥ قريةً وإلى موت نصف مليون بشري. فقد سعى جوليوس سيڤيروس ـ حاكم فلسطين الجديد ـ إلى قتل كل المتعاطفين مع الثوار، حتى وصل إلى سمعان وقتله في قلعة بيثار، وأطلق على أورشليم اسماً جديداً: أَيليا كابيتولانا (Aelia Capitolana). انكسر اليهود بانكسار هذا المسيح أيضاً فتوقف ظهور الأنبياء لقرون عديدة.

الأصليون الجنود الأميركيين ببذاتهم العسكرية الموحّدة فبدأوا يقلدونهم بحياكة الثياب المتشابهة والتكلم عبر علب البيرة كما يفعل الأميركيون عبر المذياع مكبر الصوت، كل ذلك على أمل بقاء وصول الطائرات المحمّلة بما يشتهون.

لكن هذا الانبهار خفت وتغير إيمان هؤلاء السكان ليتحول إلى اقتناع بأن هؤلاء الغرباء الغربيين أشرار. فقريباً يصل مسيح يهب الناس ما رفض الأميركيون تقديمه لهم، وأطلقوا على هذا المسيح اسم جونفروم لسبب مجهول. بعض الناس قالوا إن الاسم مستقى من الإنكليزية (John from America) والمذاهب هذه موجودة في كل الجزر الميلانيزية. فما بدا عبادة غبية للغربيين تحول إلى لاهوت تحريري في وقت قصير: سيصل جونفروم يوماً يسلّم كل البضائع للسكان ويتخلص من الغربيين. وبعد ذلك يعيشون بسلام بعد أن يثروا.

موسى الكريتي

في عام ٤٣٥ بعد الميلاد، أعلن مسيحٌ في كريت ـ أطلق على نفسه اسم موسى ـ أنه سيعيد أتباعه إلى الأرض الموعودة، وسيشق البحر لهم فيستطيعون المشي في قعره. اجتمع المئات من أتباعه قرب الشاطىء ورفع موسى يده آمراً البحر بالانغلاق.. ثم صرخ بأتباعه ليتقدموا نحو الموج، فأطاعوه ليغرق الكثيرون منهم إذ أن البحر لم يطِعْهُ أبداً؛ وغرق هو معهم.. على كل حال، اختفى لحاله نهائياً.

مسيح جيفودون

وفي العام ٥٩١ الميلادي، بدأ «مدع أنه المسيح» مجهول الاسم يهيم في فرنسا. كان هذا قد أصيب بانهيار عصبي بعد أن هاجمه سربٌ من الحشرات في الغابة، وبعد إبلاله أصبح مبشراً غطى جسده بجلد الحيوان وهام على وجهه في منطقة جيفودون. أعلن أنه المسيح، ترافقه امرأة اسمها مريم، وبدأ يشفي المرضى حالما يمسسهم. تبعه الفقراء الذين أحوجتهم حالتهم المزرية، إلى قطع الطريق على الأغنياء وسلبهم أموالهم. وكان المسيح يوزّع المال على المعوزين، فكثر عدد أتباعه حتى فاقوا ٣٠٠٠ إنسان.. وهذا ما قوّاه وجعل بعض البلدات الأخرى تؤمن به مسيحاً عائداً.

قبل أن يدخل كاتدرائية مدينة لا بوي (La puy)، قسم أتباعه ليستقروا في القاعات والكنائس المجاورة، ثم أرسل مراسيل لإعلان قدومه وإبلاغ المطران أوريليوس (Aurelius). وعندما قابل المطران هؤلاء المراسيل المعدمين والعراة قرر أنه حان الوقت لوضع حدّ لهذا الثائر الخطير. فبعث برجاله بغية «استقباله»، وما إن مال أحدهم

ليقبّل يده حتى هبّ الآخرون ودقّوا عنقه. وما إن مات مسيحهم، تفرق الأتباع. واعتقلت رفيقته مريم وعذبت حتى اعترفت بحقيقةِ الخداع والزيف لكن الأتباع أصروا على البقاء على إيمانهم بهذا «المسيح» الكاذب.

أودو دو ستيلا

بعد مضي ثلاثة قرون، ظهر مسيح آخر يدعى أودو دو ستيلا (Eudo De Stella)، لكنه لم يكن محظوظاً. فهذا جمع أتباعه في بريتاني ونظّمهم في كنيسة من المطارنة والأساتذة. ولم يتحرّج أبداً في الإعلان أنه ابن الله. كان العام ١١٤٤ الميلادي مؤاتياً جداً ليجمع أي مسيحِ أتباعاً كُثُراً إذ كان الشتاء قاسياً وقد خلّف مجاعةً عارمةً.

عاش أتباع أودو في الغابات على صيد الحيوانات، لكنه سُجِنَ في العام ١١٤٨ على يد عساكر أسقف روين حيث جاع حتى الموت. رَفَضَ أتباعه إنكاره فأحرقوا أحياء..

تانشيلم

المسيح الأشهر في القرن الثاني عشر كان تاتنشيلم من أنطويرپ (Tanchelm Of Antwerp)، الذي بدأ حياته راهباً ثم تحول إلى دبلوماسيّ يعمل لصالح الكونت روبيرت من فلاندرس من أجل إقناع البابا أن يتخلى عن بعض منطقه (Utrecht) لهذا الكونت. رفض البابا، وتوفي الكونت وانتهت مهنة تانشيليم الدبلوماسية، فتحول إلى التبشير.

يبدو أن تانشيليم تميّز بكل مميزات المدّعين الآخرين: قوةَ إقناعٍ تبشيرية هائلة، مع العلم أن معظم أتباعه كانوا من الفلاحين الفقراء

الذين لم يسمعوا يوماً بمبشرٍ متكلّم. بدأ يعظهم في الحقول، مرتدياً ثوب الرهبان، فأنكر الكنيسة لأنها منحرفةٌ وأكد أن الأسرار المقدسة تفقد فعلها وسحرها عندما توضع بين أيدي قساوسةٍ خطأة. آمن به الكثيرون ففرغت الكنائس من الناس وصناديق الكنائس من الأموال التي كانوا يدفعونها.

هل كان هذا مخادعاً أو آمن فعلاً أنه مسيح؟ لا بدّ أنه اقتنع بحقّه أن يعيش كالملوك، فارتدى الأثواب الرائعة وأحاط به تلاميذه. وفي أحد الأيام أعلن خطبته على من أسماها مريم العذراء وأقام احتفالاً لهذه المناسبة ليجتمع وتمثالاً مقدساً للبتول مريم أمام حشد من السذج قدموا الحلي والأموال هدايا للخطيبين.

لم تستطع الكنيسة أن توقفه عند حدوده، فاتسع نفوذه ليشمل أوتريخت وأنطويرب ومناطق أخرى من الريف، حتى قتل عام ١١١٥م. بمكيدة تشبه مكيدة قتل مسيح جينودودن، إذ اقترب منه راهبٌ وطعنه بالسكين. لم تمت تعاليمه فوراً، لكن عجائبياً آخر، نوربيرت من كزانتين، تمكن أخيراً من إعادة أتباعه إلى الكنيسة وتركيزها في مكانها كما كانت.

ثورةٌ وتصوف وجنس

كيف توصل هؤلاء المدعون إلى حيازة هذا القدر من النفوذ؟ أولاً، وهبتهم الطبيعة نعمة الكلام والتبشير. لكن هنالك ما يتجاوز ذلك. بدأت الكنيسة المسيحية مؤسسةً فقيرةً مُضْطَهَدَةً يُرمى بزعمائها إلى الأسود الجائعة، وتحولت فجأةً إلى الديانة الرئيسية في روما سنة ٣١٣ ميلادية، بفضل الأمبراطور قسطنطين. وما إن اعتلت كرسي السلطة حتى تحولت هذه الكنيسة، وأتباعها، إلى

ديكتاتورٍ بغيض. فبدأ المسيحيون يتصرفون أسوأ مما تصرف أعداؤهم، فدمروا المعابد الوثنية وأحرقوا المهرطقين وأمرت الفقراء أن يتوجهوا كل أحدٍ إلى الكنيسة وأن يدفعوا الضرائب لهذا الكنيسة كي تغفر لهم خطاياهم.

لهذه الأسباب التي ذكرنا، وجد المدّعون الآخرون أتباعاً توّاقين إلى التمرّد. فهؤلاء، كما يسوع، هاجموا السلطة الدينية وأعلنوا أن «القانون والشرع» أقل أهمية من الروح. إضافةً إلى ذلك، لم تخلُ الكنيسة من المتصوفين الذين اختبروا لحظات توحد نورانية وأكدّوا أنه في داخل كل إنسان جزء من الله وعلّموا أن الطبيعة تجلٍ رباني. أحد أهم الصوفيين ديونيسيوس القائل إن الله أسمى من الكلمات والأفكار.

الزوجة التي أضاعت خاتمها

هذه واحدة من القصص الشعبية يعود تاريخها إلى القرون الوسطى: لاحظ أحد الأثرياء أن زوجته تصرف وقتاً طويلاً خارج المنزل وتدعي أنها كانت في الكنيسة، قرر أن يلحق بها يوماً. فتقنّع ولحقها حتى وصلت كهفاً تحت الأرض لتبدأ الطقوس برقصةٍ يختار كل واحد شريكه بنفسه. بعد ذلك يتناول الجميع الطعام ويشربون الخمرة.

وقف الكاهن وأعلن أن الإنسان حرٌ يستطيع أن يفعل ما يشاء، ثم إستل يد فتاةٍ صبيةٍ وقادها إلى المذبح وخلعا ثيابهما. ثم استدار إلى الناس وصاح: «أنا يسوع وهذه العذراء مريم.. فافعلوا ما نفعل». تمددت الفتاة على المذبح وقام هو بمجامعتها على مرأى من الجميع. إذ ذاك، التقط كل واحدٍ من الجمع شريكته وجامعها.

في خضم هذه الفوضى، لم تشعر الزوجة بتقدم زوجها منها وسحب خاتم الزواج من إصبعها، فكانت في أوج نشوتها الجنسية. وبعد أن تأكد أن أحداً لم يره، انسلّ خارج الكهف.

وعندما عادت إلى البيت، وبخّها وصرخ بوجهها سائلاً كيف تجرؤ على خيانته ولو باسم الدين، فأنكرت واستكبرت أن يتهمها بهذه التهمة، وما إن سألها عن الخاتم حتى شحب لونها. وإذ رأته يمسك الخاتم، عرفت أنه رآها فأجهشت بالبكاء.

ضرب التاجر زوجته حتى أدماها لكنه أنقذها من الحريق على الخازوق.. هذا ما حصل للآخرين عندما كشفتهم محاكم التفتيش.

قد تكون هذه الرواية حقيقةً وقد لا تكون، لكن هذه الطرق كانت موجودةً فعلاً إذ أن أتباع «الروح الحرّة» رفضوا الكنيسة «لأنّ الله في كل واحدٍ منا»، واعتمدوا الجنس لأنه يؤمن نوعاً من التنور الإلهي بحسب أخوية الروح الحرّة، كلُّ إنسان هو مسيحه الخاص.

الجنس مع الغريب

اجتهدت الكنيسة في إنهاء هذه الجماعات بحد السيف وبلهب النار، لكن الطرق والبدع الغريبة استمرت لثلاثة قرون.

حوالي عام ١٥٥٠م، شكل كلاوس لودفيغ الألماني كنيسته الخاصة التي تفرض على أتباعها مجامعةَ إنسان غريب.

ومثل كل «دجال» قبله، أعلن أنه المسيح المنتظر، وأن تعاليمه هذه موحاة إليه من السماء.

كان السرّ المقدس اسماً ثانياً للجنس مرادفاً له. فالرجل خبزٌ

والمرأة نبيذٌ وبوصالهما يحصل العشاء المقدس، وثمار هذا الجماع أطفال مقدّسون وكان ينهي عظاته بقوله: «كونوا مثمرين وتوالدوا»، فيبدأ الجميع بخلع الثياب وإطاعة ما يقول.

علّم لودڤيغ أتباعه أن الشهوة الجنسية هي دافع الروح المقدّسة، فإن اشتهاء رجلٍ لامرأةٍ هي رسالةٌ مقدسة، وعلى المرأة أن تساعده على إطاعة إرادة الرب حتى لو كانت زوجة رجل آخر.

طالب لودڤيغ أتباعه باتباع السرّية والتصرف كالآخرين، لكن بعض هؤلاء حاول استجلاب زوجات جميلات إلى هذه المدرسة.. فشاع خبر الجماعة وانكشف الأتباع وفرّ لودڤيغ، ليُعاد من غرر بهم إلى الطريق «القويم».

ساباتاي زفاي

كاد أحد المدعين أنه المسيح، وهو يهودي تركي يدعى ساباتاي زفاي، أن يصبح أحد أقوى ملوك أوروبا وأوسعها نفوذاً.

كان هذا ابن تاجر ثري في أزمير على الشاطىء التركي. ولد في سنة ١٦٢٦، وصرف وقته في التعبد والصلاة، وفي السادسة عشرة بدأ صوماً استمر ست سنوات.

لم تنجح زيجاته إذ فرت الزوجتان الأولى والثانية هرباً من كآبته التي تمتد أياماً بعد لحظات سعادة نادرة.

في العام ١٦٤٨، حلّت كارثةٌ في بولندا إذ قام الفلاحون الأكرانيون بتمرّد على المالكين البولنديين، واجتاحوا بولندا وأبادوا يهودها الذين كانوا خدماً في قصور البولنديين الأثرياء، فهاجر من بقي حياً إلى تركيا حيث توجد جالية يهودية ثريّة.

ثمة اعتقاد ساد في انكلترا في القرون الوسطى يؤكد أن البريطانيين هم بقايا الطروادين الفارين من آسيا الصغرى بعد سقوط مدينتهم. اعتقد الرومان أنهم يتنزلون من سلالة الأمير الطروادي ايناس الذي وصل ايطاليا بعد سقوط طروادة.

قرابة العام ١١٤٠ ميلادية، نشر جوفري من مونموث كتابه المشهور «تاريخ ملوك بريطانيا»، يتمحور حول الملك آرثر والساحر مرلين. يبدأ الكتاب بالكلام المفصل حول حفيد ايناس، بروتوس، واضطراره للهروب من ايطاليا بعد أنت قتل والده خطأً خلال رحلة صيد. وبعد مغامرات عديدة، وصل بروتوس إلى جزيرة ألبيون المسكونة بالمردة وحوّلها إلى بريطانيا. اعترف بكتاب جوفري تاريخاً رسمياً لملوك بريطانيا حتى في الحقبة الإليزابيثية.

عندما سمع ساباتاي بأخبار هذه المذبحة، اجتاحته رغبةٌ في عملٍ ما لصالح شعبه، فاقتنع فجأة أنه المسيح الذي سيقودهم إلى أرض الميعاد المقدسة. فاختار عدداً من الناس يؤمنون بحرفية ما يقول واعتلى منبر المعبد وتلفظ باسم «يهوه» الذي يتجنب اليهود ذكره، فاعتبره اليهود تجديفاً ونفوه من صفوفهم. فانتقل إلى مدينة سالونيك حيث تبعه آخرون لكنه طرد من هناك بعد أن قام بإعلان زواجه الرمزي من الشريعة بطريقةٍ مقززة إذ حمل وثيقة طويلةً من وثائق الشريعة كما تحمل الزوجة ومددها على أريكةٍ حفرها مسبقاً.

عندما بلغ السادسة والثلاثين، انتقل وتلاميذه إلى القدس حيث التقى برجل أسمى نفسه فيما بعد القديس بولس، كان يدعى ناثان أشكينازي.

علم ساباتاي بوجود فتاة يهودية بولندية تدعى ساراه، فرّت من

المذابح في إيطاليا وأعلنتْ أنها ستصبح زوجة المسيح. فأرسل يطلبها وتزوجا عام ١٦٦٤.

وفي السنة التالية، أعلن للعالم أجمع أنه المسيح المنتظر، فشاع الخبر في فلسطين لكن ساباتاي تعرض لحملةٍ عنيفةٍ قادها الحاخامون لطرده من المدينة، فقرر العودة إلى مسقط رأسه أزمير. في هذه الأثناء كان زميله الآخر الذي ادعى أنه «القديس بولس» يرسل الرسائل إلى الجاليات اليهودية الأوروبية مبشراً بوصول المسيح، فقرئت في المعابد وساد شعورٌ بقرب يوم الحساب.

في أمستردام، خرج اليهود يرقصون في الشوارع، بينما قامت المراهنات في لندن حول إعلان ساباتاي ملكاً على العالم.

لم يشارك كل الأوروبيين في هذه الحماسة، فاليهود الأرثوذوكس أصيبوا بالصدمة لتشابه تعاليم ساباتاي وتعاليم أتباع أخوية «الروح الحرّة» خصوصاً بالنسبة لدعوته إلى سفاح القرى والاتصال الجنسي غير الشرعي. وفي الواقع فقد صدم أتباع ساباتاي جيرانهم بعريهم الكامل الدائم إذ كان العري يعتبر خطيئة كبرى.. لكن ساباتاي رفض ذلك وأعلن مساواة الجنسين وضرورة حرية المرأة في التجول بين الرجال كما تريد، وأضاف أن الطلاق والزنا لا يمنعان المرأة من التعبد والاشتراك في الطقوس الدينية. ألم يتزوج هو نفسه من مومسٍ بولونية؟

ثم حاول أتباع ساباتاي قمع رغباتهم الجسدية وتعذيب أجسادهم بالتجويع ويدفن أنفسهم إلا رأسهم ليبقى فوق الأرض.. كل هذا بمناسبة انتهاء الألف عام من الحياة.

وفي يومٍ من الأيام، قرر الذهاب إلى عاصمة الأمبراطورية التركية، القسطنطينية، فوصلها بعد أسبوعين كاملين من الإبحار.

عندما عم خبر قُدُومِهِ، قامت مظاهر الفرح والحبور كما في العواصم الأوروبية الأخرى، إذ أحس اليهود أن ساباتاي سيعيدهم إلى المجد الذي عاشوه أيام الملك داوود.

تنبه السلطان محمد الرابع لهذا الأمر، وأرسل جنده إلى المرفأ ليقبضوا على هذا «الدجال» فور وصول مركبه ـ وهكذا كان، لكن الأثرياء اليهود ضغطوا على السلطان كي لا يقتله فسجنه في أحد قصور غاليبولي وسمح له بمقابلة إنسانٍ واحد كل يوم.. فزاره عالم يهودي بولندي، نهيميا هاكولين، عازماً على إظهار زيفه للعالم فما استطاع، فأسرع هذا إلى السلطان وأسرّ إليه أن ساباتاي متمرد اعترف أمامه بنواياه في الوصول إلى العرش. وفي أيلول/ سبتمبر ١٦٦٦، مثل ساباتاي أمام الخليفة فأمره أن يعلن إسلامه أو يموت. في هذه اللحظة بدأت نهايته، إذ أعلن إسلامه خوفاً من القتل وغيّر اسمه إلى عزيز محمد أفندي، وابتدل القلنسوة اليهودية بالعمامة الإسلامية، ثم لحقت به زوجته وأمسى اسمها فاطمة راضيني.

تنازل ساباتاي عن ادعائه تخليص العالم مقابل الراحة والمنزل الوثير الذي أسكنه فيه السلطان، لكنه ما انقطع عن عبادته اليهودية في السرّ. واستطاع أن يقنع أتباعه أن هذا الأمر هو من أفعاله غير المبررة.

تابع ساباتاي التبشير بالحرية الجنسية فأحرج السلطان ونفي إلى قرية نائية من قرى ألبانيا حيث تزوج ثانية بعد وفاة ساراه في العام ١٦٧٤، ثم أعلن ثانيةً أنه المسيح دون أن يلتفت إليه أحد.

كان هذا المسيح الدجال الشخص الوحيد في التاريخ الذي أعلن زيفه وبقي ينتزع مكانةً ساميةً في قلوب مريديه.

الفصل الثالث

قصص إراقة الدماء

٣

القتلة

في العام١٢٧٣، مرّ الرحالة المشهور ماركو بولو في سهل علموت الفارسي وشاهد قلعة «شيخ الجبل» زعيم الفرع الفارسي لفرقة الحشاشين. في ذلك الوقت، كان عمر هذه الفرقة لا يقل عن مئتي عام والتي قضى عليها المغول الذين اجتاحوا منطقة الشرق الأوسط بقيادة جنكيزخان.

يروي ماركو بولو أن «شيخ الجبل» الذي يدعى علاء الدين أقام جنةً معلّقة في السهل الأخضر الممتد خلف القصر ـ القلعة وبنى فيه فسطاطاً رائعاً وينابيع نبيذٍ ولبنٍ وعسل، تتمايل قربها الحوريات وهن يرقصن ويغنين أجمل الأغنيات. كان الهدف وراء بناء هذه الجنات أن يتذوق الأتباع طعم الجنة والنعيم فلا يترددون في التضحية بحياتهم من أجل زعيمهم. فعندما ينوي شيخ الجبل قتل أحدهم يطلب متطوعين يجري إدخالهم إلى هذا البستان السري ـ الممنوع على الذكور ـ فيتمتعون بما أعطي لهم ثم يمثلون أمام الشيخ فيطلب منهم قتل «فلان» ويعدهم بالجنة الدائمة حين يعودون سالمين.

ما يزال قصر شيخ الجبل قائماً حتى الآن لكنه مهجور يحتاج إلى ترميم. وبجانبه ثمة آثار على وجود سهلٍ فيه ينبوع جفّ ماؤه، لكنه صغير لا يصل إلى وصف ماركو بولو.

في منتصف القرن الحادي عشر، ولد حسن ابن الصباح، أعظم الزعماء الإسماعيليون الذي مزج توهّج أغسطينس الديني وذكاء لينين السياسي وأسس منظمة الحشاشين وأمسى شيخ الجبل الأول. بعد تزايد أتباعه حيث اختار قصراً في أعالي جبل البورز المشرف على سهل خصيب مزروع طوله حوالي ٥٠ كلم وسيطر على هذه القلعة بعد أن بث دعاته في القرى المحيطة به حتى وصلوا إلى صاحب القصر فانضم إليهم، فتسلل حسن إلى القصر وسكن فيه حتى استيقظ المالك يوماً فطلب إليه الرحيل بلباقةٍ والتخلي عن القصر وأعطي ثلاثة آلاف دينار ذهباً تعويضاً.



صورة رقم ٣

كان ذلك عام ١٠٩٠، وعاش حسن حياته القصيرة، خمسة وثلاثين عاماً، في هذا القصر يقرأ ويكتب الكتب ويخطط للفتوحات وهو لم يظهر على معظم أتباعه، وكان شرع القصر حازماً: اقتصاد في الطعام وامتناع تام عن الخمرة. حتى أن حسن أمر بقطع رأس أحد أولاده لمعاقرته الشراب.

عمّ الشعور بالتمرد والثورة الذي أذكاه الدعاة الإسماعيليون، وطُرد الأتراك وأصبحت خوزستان المعقل الإسماعيلي الثاني بعد «ألاموت». تنبه الأتراك إلى ذلك الخطر الإسماعيلي وقرروا القضاء على هذه الحركة، فوجهوا حملتين إلى ألاموت وخوزستان لكنهم فوجئوا بمناعة خصون شيخ الجبل في المنطقتين وبسالة أنصاره.

عندئذٍ، في عام ١٠٩٢، ارتكب حسن بن الصباح أفدح الأخطاء. فبعد أن اقتنع باستحالة الحرب المفتوحة مع الأتراك، قرر استخدام أعوانه وأتباعه، المستعدين للتضحية بحياتهم من أجله ومن أجل قضيتهم، في قتل أعدائه واحداً واحداً. وفي ١٠٩٢، قتل الحشاشون أول أعدائهم وأبرزهم، نظام الملك، وزير السلطان التركي.

تنكر إسماعيلي يدعى «أبو طاهر عرّاني» في زي صوفي واقترب من نظام الملك أثناء خروجه من قصره لأداء صلاة عيد الفطر وطعنه بحربةٍ في صدره ليقتل بعد ذلك بيد حرّاس الوزير.

بعد هذه الجريمة، تأكد لحسن أين تقع مكامن قوته. فهو قادر على احتلال قلعةٍ بالتبشير والدعاء والبراعة والرشوة، وعلى تدمير أعدائه بإرسال حشاشٍ واحدٍ. وقد تكون تلك أول معادلة لشن حرب العصابات الأولى.

كان الخطر كامناً في أن يسود الحقد والكراهية في صفوف الناس ضد الإسماعيليين بسبب تلك الاغتيالات المنظمة، لكن

حسن أجّل التفكير في هذا الخطر إلى حين، مأخوذاً بنجاح خططه. فبعد مقتل نظام الملك، توفي السلطان مالك السلجوقي من جراء آلام في المعدة. أحد أبناء نظام الملك الذي يدعى فخري طعن حتى الموت في بلدة نيسابور، وابنه الثاني، أحمد، تعرض لمحاولة اغتيال بالسيف لكنه نجا بأعجوبة.

أدى موت السلطان مالك شاه إلى نشوب صراع على السلطة بين السلطان الجديد بيركياروق وأخوته، فانحاز حسن إلى هذا السلطان، وقتل حشّاشوه عدداً كبيراً من مُنافسيه. وعندما ارتاح إلى أمره، سُمِحَ للشيخ حسن أن يعيش بسلامٍ لسنوت عديدة. لكنه استمر في عمليات الاختراق التي اعتادها، فانضمّ الإسماعيليون إلى جيش السلطان وجندوا الكثير من جنوده بعد أن ضمنوا صمت الضباط عن طريق تهديدهم بالقتل. أمسى

في العام ١٩٧٥، أعلنت ثلاثة جزر من مجموعة كوموررو الواقعة بين أفريقيا ومدغشقر استقلالها عن فرنسا. بعد ذلك، أعلن علي صويلح نفسه ديكتاتوراً على أصغرها بمساعدة المرتزق الفرنسي بوب دونارد، فأنشأ سرايا الإعدام، وخطف النساء واغتصبهنّ ونظّم تدمير كل الماكينات الموجودة على الجزيرة.

بعد سنتين من الحكم، استشار صويلح طبيباً ـ منجماً ليعرف ما يخبيء له الغيب، فأخبره المنجم أنه سموت بيد رجل يملك كلباً. فأمر سرايا الإعدام بقتل كل الكلاب على الجزيرة. لكنه قتل بعد عام واحد برصاص المرتزقة أتباع صديقه القديم بوب دونارد الذي اتفق مع أحد أعداء الديكتاتور. وكان المنجم صادقاً، فبين قوات دونارد كان الكلب ذو الأصول الألزاسية الذي يعتبره دونارد جالباً للحظ.

الوضع لا يطاق، فلا من يجرؤ على الخروج من داره دون سلاح يخبئه تحت ثوبه؛ وقتل زعماء المذاهب الدينية المنافسة في الجوامع. لكن السلطان بركياروق فقد صبره وقرر أن أوان القضاء على الحشاشين قد آن، فاتفق وأخاه صنجر على إخضاع خوزستان. وصلت الحملة إلى المنطقة ودمّرت المحاصيل وكادت أن تحتل القلاع لولا أنّ الإسماعيليين لم يَرْشَوا ضباط الحملة، فارتدّ هؤلاء. حاول صنجر تجريد حملةٍ عسكرية أخرى، لكنه تراجع عنها وأصدر عفواً عن الحشاشين بعدما أفاق يوماً ليجد سكيناً مغروزاً في وسادته وقربه رسالة فيها: «كان يمكن أن يدخل نصل هذا السكين في قلبك لتخرج روحك»، محفورة بخاتم حسن.

بدأت أحوال شيخ الجبل تتقهقر بموت الخليفة الفاطمي في القاهرة عام ١٠٩٤، وفشل ابنه نزار في الجلوس مكانه فرفض حسن الاعتراف بالسلطان الجديد.

بلغ حسن السابعة والثمانين فتعب من تحدي كل العالم العربي إلى الأبد، فأرسل إلى الخليفة الجديد يعرض عليه الصلح. قبل أن يتم هذا الصلح، حاك الوزير الجديد مكيدةً صدّقها الخليفة فأمر أهل القاهرة أن يتسجلوا في سجلات بهدف حصر الغرباء ومراقبتهم، لما سهل اعتقال «عملاء حسن» ومن بينهم الأستاذ الذي كان يتولى تدريس أولاد الخليفة.

وبحلول أيار/مايو عام ١١٤٤، توفي شيخ الجبل حسن ابن الصباح في قصره في «ألاموت» عن تسعين عاماً، منصباً خليفته قبل فراقه كي لا يقع الأتباع في فخ التشرذم والانقسام فاستلم الفرع السوري القيادة، وكانت قصصه الرهيبة في مواجهة الصليبيين التي حملها الصليبيون معهم إلى أوروبا هي ما أدخل

مصطلح «Assassin» إلى اللغات الأوروبية وأبرزها الحادث الذي أدى إلى اغتيال الفارس الصليبي كونراد دو مونفيرا (Conrad De Montferrat) عام ١١٩٢ مطعوناً بحربتي حشاشَين، سوريين من أتباع شيخ الجبل سنان، وكانا متنكرين في زي الرهبان. بعد ذلك، استحوذت قصص الحشاشين على مخيلة الأوروبيين لما قرأوه في صفحات المؤرخين الذين واكبوا الحروب الصليبية. فقد صوّر هؤلاء الإسماعيليين قتلةً محترفين في فن التنكر والمكر، ووصفوا شيخ الجبل بالساحر القابع في قصره يراقب العالم بحثاً عن ضحايا. ولفقوا التهم للإسماعيليين بأنهم يشجعون سفاح القربى ويأكلون لحم الخنزير بخلاف المسلمين والإسلام.

عندما شاهد ماركو بولو هذا القصر في «الاموت» عام ١٢٧٣، كان نفوذ الحشاشين قد انحسر بعد أن أبادهم المغول في بلاد فارس وفي سوريا شتّتهم وقتلهم الظاهر بيبرس سلطان مصر.



السفّاحون

لم يهتم الأوروبيون بفرقة السفاحين الهنود إلا بعد الاستعمار البريطاني في أواخر القرن الثامن عشر. ففي البداية، لاحظ المستعمرون أن طرق الهند غير آمنة بسبب عصابة تسرق الناس وتخنقهم. الطبيب روبيرت شيروود المقيم في مادراس استجوب أحد هؤلاء قاطعي الطرق عن ديانته فأُجابه أنه «يقتل لأن واجبه الديني يحتم عليه ذلك، وأن هدفه الأول هو القتل لا السرقة».

اعتمد «السفاحون» الهنود الطريقة نفسها في كل مرّة: في كل محطّة، يوقف بعض الهنود عربة المسافرين طلباً للسفر معهم مقابل الأمن والحماية، حتى يمسي عدد الهنود القتلة أكثر من عدد المسافرين، فيتولى كل ثلاثة منهم خنق مسافرٍ بحبل يحمله واحدٌ منهم في عملية سريعة لا تستغرق أكثر من ثوانٍ قليلةٍ، ثم يقومون بتشويه الجثث وتقطيعها كي تضيع معالمها وكي تتحلّل سريعاً بعد دفنها. وبعد انتهاء عملية القتل، ينصب السفاحون خيمةً ويصلّون فيها لمجد الإلهة «كالي» التي كانوا يعبدونها!

كان وليم سليمن ضابطاً في الجيش البريطاني، ذهل لما كتبه شيروود فانكب على دراسة اعتقادات هؤلاء السفاحين حتى أصبح مرجعاً معتمداً يقصده كل طالب معرفة حول هذه الجماعة. وفي عام ١٨٣٠، كلّفه اللورد ويليم بينتينك (Lord William Bentinck) قمع السفاحين.

لحسن حظّه، كانت الجماعة قد نخرها سوس الانحراف والرشوة والفساد. ففي البداية كان أفراد الجماعة يخضعون لقوانين صارمة تمنع قتل النساء، لأن «كالي» امرأة، والمتسوّلين والنجارين والمكفوفين والمنبوذين والبرص والمشوّهين ومن يقود عنزةً أو بقرة.

لكن الجشع أدى إلى تراخٍ في تطبيق القانون، وأدّى، برأي أفراد الجماعة، إلى انحلالها وضعفها.. وهذا صحيح.. فالجشع يعني ترك القتلى دون دفن ما يسهل عمل الشرطة والمباحث. كما قام الإنكليز بشق الطرق الجديدة الآمنة التي تسهّل مطاردة القاتلين واعتقالهم. فتحوّل عدد من السفاحين إلى مخبرين للشرطة وللبريطانيين وهذا ما أدّى بدوره إلى اعتقال الآلاف منهم وتقديمهم للمحاكمة.

كان ويليم سليمن أول من فهم عقيدة السفاحين الهنود، فالقتلى كانوا يعتبرونهم أضاحي يقدمونها للالهة كالي. وبسبب أصوليته، كان السفاح مدققاً وأميناً وكريم القلب وجديراً بالثقة، حيث أنه يكون في الأيام العادية مواطناً طبيعياً ولكنه يتحول إلى قاتلٍ في أوان الحج. ومعظمهم كان ثرياً يمسك مسؤوليات عليا في المجتمع. ولذلك فقد واجه السفاحون الموت بشجاعة أثرت في جلاّديهم البريطانيين.

يروي أحد الزعماء كيف قامت عصابته بإبادة جمع من المسافرين بلغ عددهم سبعاً وعشرين بينهم خمس نساء وطفلين. ففي منتصف الليل أوقفوا وقتلوا الجميع ما عدا الولدين، لكن واحداً منهما بقي يبكي طالباً أمه التي رآها تموت أمامه فأمسكه أحد السفاحين بقدمه وهشّم رأسه على صخرةٍ قريبةٍ. دفن الجميع ونُسيت جثة الطفل فوجدها مالك الأرض وأرسل بجيشٍ من رجاله لاقتفاء آثار القتلة حتى وجدهم وأبادهم وأسر منهم أربعة رجال وأعاد غنائمهم. أما الطفل الآخر فتربّى على يد السفاحين ليصبح مثلهم.

كان أولاد السفاحين الذكور يتربون على المذهب بإشراف معلّمٍ

له كل الصلاحيات، حتى يبلغوا العاشرة فيسمح لهم بمشاهدة القتل. وفي سن الثامنة عشرة، يشتركون في عمليات القتل والخنق.

بحلول عام ١٨٥٠، محيت آثار السفاحين من الهند بعد أن قدم ٤ آلاف منهم إلى المحاكمة لتشنق الغالبية منهم وليحكم الآخرون بالسجن المؤبد أو النفي. أما سليمن، فقد عقد معهم صداقات وخصوصاً مع فيرينغيا (Feringheea)، زعيم الجماعة، وحاول أن يستدر عطف المحكمة للعفو عنه لكنه جوبه بالرفض عندما روى هذا الزعيم تفاصيل رحلةٍ ذهب ضحيتها ٥٠١ رجال ونساء.

الخليستي والسكوبتزي

عندما روينا رواية راسبوتين آنفاً، لم نتطرّق للطريقة الدينية الغريبة التي كان ينتمي إليها. فعندما زار راسبوتين دير ڤيرخوتور (Verkhoture)، برفقة مبتدىء يدعى ميليتي سابوريڤسكي (Mileti Saborevsky)، علم أن هذا المكان هو سجنٌ أيضاً لأعضاء بعض الفرق الهرطوقية الأخرى مثل الخليستي (The Khlysty) أو الضاربين بالسوط، والسكوبتزي (The Skoptzy) أو المشوَّهين. خلال مكوثه في هذا الدير، استمتع راسبوتين في تجاذب أطراف الحديث مع هؤلاء المهرطقين فتعلّم من الخليستي أن مملكة الرب تتحقق على هذه الأرض بواسطة رجلٍ مختار.. وهم كانوا، بلا شك، المنتخبون. وعلم أيضاً أن الكنيسة الأرثوذوكسية تكرههم لأنها تعتبر طقوسهم مخزية وخليعة. وكان راسبوتين شاباً ونشيطاً من الناحية الجنسية، فلا بد أنّه اعتقد أن هذا الأمر جدير بالبحث والتمحيص. على كل حال، دخل سلكهم وأصبح واحداً منهم قبل أن يعود إلى مسقط رأسه پوكروڤسكو (Pokrovskoe)

ويستخدم تعاليمه ليغوي نصف نساء القرية، حسب ما يتّهمه أعداؤه. لا بد من وجود بعض الحقيقة في هذا الاتهام.

لنصل إلى استيعاب الخليستي، أو حتى فرعهم الغريب السكوبتزي، يجدر بنا معرفة القليل عن الجدل الديني الذي قسم روسيا إلى مخيمين متضادّين. كان السبب في ذلك رجلٌ يشبه غريغوري راسبوتين.

كان نيكون مورڤينوف (Nikon Mordinov) فلاحاً مؤمناً، زاده موت أولاده الثلاثة إيغالاً في الدين، استقبله القيصر الكيسيس في موسكو عام ١٦٤٥ وأصبح صديقه المفضل ليتحول فيما بعد إلى الرجل الأقوى في روسيا. رُسِمَ بطريركاً في العام ١٦٥٢ وحكم روسيا عندما خرج القيصر للحرب.

كان نيكون متعصباً ومستأسداً، فقرر إصلاح الكنيسة بالقوّة. لم يكن الرهبان ذا مقامٍ رفيع في الكنيسة فعاملهم نيكون بصرامة وأمرهم أن يطلبوا الاحترام والطاعة، وسجنهم وعذبهم عندما وجدهم لا يقومون بأعمالهم خير قيام. كما قرر أن ينقح خدمة القداس وكتاب الصلوات في الكنيسة الروسية، فأمر بتغييرٍ قليلٍ في لفظة اسم «يسوع» وحض المؤمنين على التصليب بثلاثة أصابع بدلاً من اثنين.

واجه نيكون مقاومة من الذين أطلقوا على أنفسهم «المؤمنون القدامى». وبعد اثني عشر عاماً من الجدل، ضاق صدر القيصر من هذا الرجل غريب الأطوار فعزله وأعاد عدوّه أڤاكوم (Avakkum)

النبي الميدي زارادشت الذي أطلق ديانة عبادة النار الفارسية القديمة عاش على تناول الأجبان طوال ثلاثين سنة من عمره.

من منفاه السيبيري لينصبه مكانه. لكن المؤمنين القدامى لم يربحوا الحرب، بل استمر الصراع مريراً حتى نهاية القرن، وشهد انتحاراً جماعياً بالحريق أقدم عليه مئات من هؤلاء المؤمنين القدامى.

تطوّر الصراع وتشعب، فأصبح الدين مهماً جداً في روسيا. برغم غلبة طريقة الروم الأورثوذوكس هناك، بدأت مذاهب أخرى في الظهور بين ليلةٍ وضحاها، بينها الخليستي والسكوبتزي أو المضروبين بالسوط والمشوّهين.

قيل إن ظهور الخليستي بدأ في العام ١٣٦٣.. هذا ممكن.. لكن الانقسام الحاصل في روسيا أمّن لهذه الفرقة دفعاً إضافياً. فأتباع هذا المذهب يقسمون العالم إلى روح جسد، الروح ـ وهي: الخير والجسد ـ وهو: الشر، ويعتقدون ـ وهذا المثير في الأمر ـ أن المسيح سيعود إلى الأرض كإنسان. فجسده بقي في القبر بينما سكنت روحه جسداً آخر، وهو مستمر في هذه الحالة على مرّ العصور.

أڤيرزان (Averzhan) واحدٌ من هؤلاء الأتباع صلبه ديميتري دونسكوي (Dimitri Donskoi) في كوليكوڤو (Kulikovo) عام ١٣٨٠؛ ويميلجان (Yemeljan) دجال آخر اضطهد وقتله إيفان الرهيب. ولكن «دجال» بين هؤلاء الأركان يدعى دانيال فيليبوڤ (Daniel Philipov) وكان معاصراً لنيكون.

كان فيليبوڤ فلاحاً من كوستروما (Kostroma) ترك الجيش وانضم إلى أنصار المؤمنين القدامى، نزل عليه الإلهام في أحد الأيام عندما كان على هضبةٍ في غولودينا (Golodina) في فلاديمير، على طريقة الاله زابوث (Zeboath) الذي يلازمه ملاكان، ودخلت «الروح المقدسة» في جسده، التي يطلق الخليستي على هذه الظاهرة «الحلول الثاني».

بدأ فيليبوف يبشّر في ستارايا (Staraya)، ثم انتقل إلى المركز الرئيسي، كوستروما، حيث قدم كتاباً «مقدّساً» أسماه كتاب «اليمامة» وقال إن الرجال من يتزوجوا ولن يشربوا الكحول ولن يقسموا بل سيسعون إلى الاستشهاد. «أما من تزوج من قبل فليهجر زوجته وسيطلق على أطفاله لقب (الخطايا)..» وعلى الرجل أن يأخذ زوجةً روحيةً جديدةً تكون من هذا السلك تنام معه في الفراش كما زوجته الأولى دون أي اتصال شهواني جسدي».

يروي يوسيوف تفاصيل اللقاءات والطقوس التي قررها هذا الدجال:

«كانوا يجمعون في طقوسهم بين المسيحية والممارسات الوثنية». فيجتمع الأتباع والمؤمنون ليلاً في كوخ مضاء بآلاف الشموع، بهدف الوصول إلى النشوة الروحية، فيشكلون حلقةً ويبدأ الترنح على نغمات التراتيل الخاصة بهم ثم يسرعون في الدوران حتى يصيبهم الدوار الضروري للتدفق الرباني. وينتهي بهم الأمر مستلقين على الأرض تعبين تجتاحهم التشنجات والنشوة، يعظون أن من تمتلكه روح يكون ملكها فلا يُسألُ عما يرتكب من خطايا. أخيراً، تطفأ الشموع، والقناديل، ويبدأ المؤمنون بممارسة الجنس فيما بينهم دون تحرّج أو خوفٍ من سفاح القربى».

ويقدم فريديريك كونيبار (Frederick Conybeare) وصفاً أقل إثارةً في كتابه «الخوارج الروس» (The Russian Dessenters): «كانوا يرقصون حول دستٍ فيه الماء يبدأ بالغليان لينبعث منه بخارٌ ذهبي، ويبدأون بجلد بعضهم بعضاً بالسياط دون أن يتوقفوا عن الترنيم، وترديد كلمات دون معنى. بعضهم يصاب بعوارض الهلوسة ويعلن أنه رأى غراباً أسود أو أماً وولدها يرتفعان من بخار

الماء. أخيراً ينهارون على الأرض متعبين ويستغرقون في نوم طويل.. لا بد أن هذه الطقوس تؤدي أحياناً إلى حفلات جماعية في الظلام المخيّم».

السكوبتزي قسمٌ متطوّرٌ من الخليستي، يجدر بنا هنا الإشارة إليهم لتكتمل الصورة الدينية لروسيا القديمة. الخليستي تقيس صدق «المسيح» من خلال قدرته على تحمل الآلام، لهذا صُلِبَ ڤيليپوڤ مرتين، لكن خليفته وابنه الروحي إيڤان سوسلوڤ (Ivan Suslov) تحمّل الصلب ثلاث مرات والتعذيب بالحديد الحامي. توفي فيليپوڤ عام ١٧٠٠، ولحق به سوسلوڤ بعد ثلاث سنوات قضاها يبشر في موسكو.

بعد سبعين عاماً، أعلن الخليستي أن امرأة تدعى أكولينا إيڤانوڤا (Akulina Ivanova) هي «والدة الله»، فدلّت على المسيح، وكان يدعى إيڤانوڤ، الذي كُرّس باسم كوندراتي سيليڤانوڤ (Kondrati Selivanov)، وأسّس السكوبتزي، وأعلن وجوب خصي الرجال وبتر أثداء النساء وتشويه فروجهنّ. وفي أول خمسيناته، أخصى نفسه بواسطة حديدٍ حامٍ جداً.

وصلت، في هذه الأثناء الأمبراطورة كاثرين إلى العرش بعد أن قتلت زوجها بطرس الثالث، فأعلن سيليفانوڤ أنه هو بطرس الثالث، فأودع مصحّة عقليّةً حتى أخرجه منها الاسكندر الأول عام ١٨٠١، وسمح له بالتبشير العلني. عاش حتى العام ١٨٣٠، وقضى السنوات العشر الأخيرة من حياته في سوزدال (Suzdal) دون أن يخفف ذلك من عنفوانه وقوة تأثيره.

كشفت السلطات أمر التشويه الذي كان يتم سرّاً فاعتقلت المتقدّمين في السلك ونفتهم إلى سيبيريا وكان ذلك عام ١٨٩٨.

كان الأتباع يعتقدون أن سيليڤانوف ما يزال حياً لكنه كان قد توفي قبل ثمانٍ وثلاثين سنة.

كما يبدو نجت هذه الجماعة من تهم الحفلات الجماعية التي رميت بها الخليستي، لكن الحقيقة تبدو` مغايرة، فقد نقل عن مصادر موثوقة أن النساء شوهن خارجياً فقط وأصبحن مومسات يعملن لمصلحة الجمعية، وأن بعض الرجال أجروا عملية الخصي على أنفسهم لكنهم توقفوا قبل أن يصبحوا مخصيين نهائياً، وأطلق عليهم «السكوبتزي الأقل عهداً» لتميزهم عن المخصيين بالكامل.

ربما التقى راسبوتين في حياته بمذاهب مختلفة عن هذين المذهبين الغريبين كمذهب «المداعبين» الذين كانوا يدغدغون المرأة للوصول إلى النشوة الدينية؛ وفي بعض الحالات أوصلت الدغدغة هذه إلى الموت. كما انشق السكوبتزي وخرج منه مذهب انتحاري بقيادة أحدهم ويدعى شودكين (Shodkin) الذي قاد أتباعه في عهد الاسكندر الثاني إلى كهفٍ وأقفل عليهم.. ولمّا خافت إحدى النساء وكسرت الباب، طلب من أتباعه أن يقتلوا بعضهم بعضاً: قُتِلَ الأطفال أولاً ثم النساء. وعندما وصلت الشرطة، كان سودكين واثنان من معاونيه فقط ما يزالان على قيد الحياة..

الفصل الرابع

مذابح جديدة

٤

الموت الأسود والمجلودون

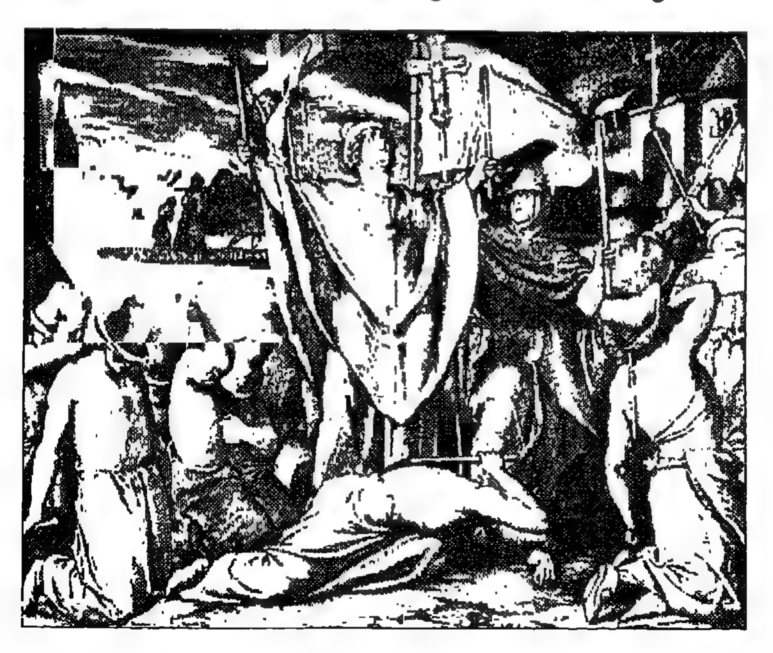
حلّ العام ١٣٤٥ حاملاً معه داءً أسموه «الموت الأسود» يصيب جثث الزلازل والفياضانات في الصين، نقلته الجرذان والفئران إلى أوروبا، ووصل إلى كريميا (Crimia) في جنوب روسيا في العام التالي.

ذهل التتار وقرروا البحث عن مسببٍ لهذا المرض وعن كبش فداء فما وجدوا غير «المسيحيين». لحقوا بتجار جنوى إلى معقلهم المحصّن في كافّا (Caffa) وحاصروهم. لكن الطاعون أصاب جنودهم فماتوا من العطش والتورمات في البطن والأطراف، وعلى أجسادهم بقع سوداء كثيرة. وقبل رحيلهم، قرر التتار أن يُذيقوا المسيحيين مرّ ما يعانون منه فقذفوا بعشرات الجثث التي أكلها المرض بالمنجنيق من فوق الأسوار. حمل التجار الجثث إلى البحر فوراً لكن ما حصل كان حصل. تغلغل المرض في المدينة وقرر التجار العودة إلى أوروبا حاملين معهم المرض، فانتشر سريعاً من ميسينا (Messina) إلى المرفأ الصقلي إلى إنكلترا مبيداً نصف السكان.

ومن جديد، جرى البحث عن كبشٍ للفداء. ففي ألمانيا، اتُّهِمَ

اليهود بتسميم الآبار فاعتقل منهم العشرات الذي اعترفوا بالتهمة تحت التعذيب وقتلوا في مذابح في كل ألمانيا. كبش الفداء الآخر البُرص؛ ففي القرون الوسطى كانوا يهتمون بالبرص ويساعدونهم لكن الناس تحوّلوا إلى وحوش ورموا البرص بالحجارة ورفضوا دخولهم إلى المدائن المسوّرة.

أغرب الظواهر التي رافقت تفشي الموت الأسود كانت طريقة دينية عرفت بالمجلودين (The Flagellants)، ابتدأت قبل قرن من الزمن في إيطاليا حيث دفعت موجات الطاعون والمجاعة الشعب الإيطالي إلى الاعتقاد أن الرب يريد من عباده أن يندموا ويتوبوا، فقرر أتباع هذه الطريقة أن يتعروا حتى وسطهم وأن يجلدوا أنفسهم بالسياط التي في آخرها مسامير معدنية كبيرة الرأس. في ذلك الوقت، بدت هذه الوسيلة فاعلةً فاعتمدت عند الضرورة،



كما أن ضراوة داء الموت الأسود أقنعت الناس بضرورة اعتماد العلاجات اليائسة. فهبطت رسالةٌ من السماء فيها أن المجلودين هم الغالبون والناجون دون غيرهم، طبعت في العام ١٢٦٠ وظهرت ثانية في فلسطين عام ١٣٤٣ حيث كان يجب أن تتسلّمها كنيسة القديس بطرس من ملاكٍ ما. كان المجلودون يصلون على شكل جماعاتٍ من الحجاج إلى مدينةٍ ما فيجتمعون في ساحتها ويبدأون الجلد ويدخلون في حالةٍ من الهيستيريا حتى يسيل الدم تحت أقدامهم ملطخاً لباسهم التقليدي الأبيض الذي يغطي نصفهم السفلي. يدوم الحج ثلاثة وثلاثين يوماً يقطع خلاله المجلود أو المجلودة عهداً بالتعرض للجلد ثلاث مرات يومياً حتى انتهاء المدّة، لهذا كانوا يعاقبون من يحنث في وعده.

انقلب الرأي العام على هؤلاء إذ كانوا ينقُلون العدوى من مكان إلى آخر، ومنعوا دخول المدن، وأصدر البابا أمراً بابوياً ضدهم، فبدأت ظاهرتهم بالانحسار.

من أهم نتائج الموت الأسود كان نقص القوة العاملة؛ فقد أقفرت مئات القرى من الرجال الذي يعملون في الحقول مما اضطر الملاّكين إلى بيع أراضيهم للفلاحين إذ لا فائدة منها ترجى بعدُ، وهذا ما غير في ميزان القوى: حيث تحوّل من أمضى حياته أجيراً إلى مالك أرض، وقامت قيامة الفلاحين وثاروا وتمردوا، خصوصاً في بريطانيا عندما أعلن الملك ريتشارد الثاني فرض ضريبة «الرأس» عام ١٣٨١، لكنه نجا بروحه إذ وعدهم بتحقيق مطالبهم ثم خانهم وتراجع عن وعوده.

وصلت الأمور إلى نقطة اللاعودة. فمنذ قرن، يتنازع السلطة الملك والكنيسة، أما الآن فقد أتى دور الشعب لينال حصّته.

قام أحد الرهبان في منطقة كنت (Kent) يدعى جون بول (John Boll) بالتبشير بما يشبه الشيوعية ـ شيوع الملكيات وانحسار الفارق الطبقي ـ لكنه أعدم فور قمع تمرد الفلاحين. أما عظاته فبقيت في أذهان الناس.

وانتشرت هذه الروح الثورية ولا ما يوقفها، وحين توجّه الراهب الألماني الشاب مارتن لوثر (Martin Luther) إلى روما وذهل للروح التجارية في الكنيسة، كانت أيام البابا الباقية معدودة جداً.

الاحتجاج الكبير

في أخر يومٍ من شهر تشرين الأول عام ١٥١٧، علّق مارتن لوثر إعلاناً على باب كنيسة القصر في ويتينبورغ (Wittenberg) منتقداً الكنيسة الكاثوليكية في خمسةٍ وتسعين مقطعاً. فاحتجّ على ثراء روما وفسادها وإطلاقها العنان لشهواتها. وعندما وصل الخبر إلى البابا ليو العاشر علّق قائلاً: «لوثر ألماني ثملٌ لا بدّ أن يغيّر رأيه عندما يصحو من سكرته».

إدعى قاتل نيويورك المتسلسل «ابن سام» دايفيد بيركوفيتز أثناء محاكمته أن أصواتاً شيطانية في رأسه دفعته إلى القتل. وبعد إدانته، أعلن للصحف أن إدعاءاته هذه كاذبة استخدمها لينال أحكاماً مخففة. لكن أدلة على انتماء بركوفيتز إلى إحدى المذاهب الشيطانية وعلى أنه قد قتل مدفوعاً فعلاً بأوامر هذا المذهب، خرجت إلى العلن بعد اعتقاله فوراً.

في إحدى رسائله إلى قسم شرطة نيويورك، لاحظ بركوفيتز أن جون ويتيز مغتصب وقاتل الفتيات الشابات. صحفي حقق في هذا الموضوع أدرك أن ويتيز هو لقب أحد مساعدي بيركوفيتز ويدعى جون كار. وبعد جهد، اقتفى الصحفي هذا، موري

كانت هذه العبارة دلالةً واضحةً على خطأ البابا. فخلال ثلاث سنوات، أصبح لوثر المبشر الأشهر في ألمانيا وبدأت تباشير الثورة على الكنيسة هناك. فلو كان إنكليزياً أو فرنسياً لكان اعتقل وأحرق حياً، لكن الأمراء الألمان ضاق صدرهم من جمع الأموال للبابا، وسرّوا كثيراً لما يحصل. غادر الرهبان والراهبات الأديرة وتزوجوا، وأصبحت اللغة الألمانية هي لغة القداس في الكنائس، كما بدأ الإصلاحيون يكسّرون التماثيل المقدّسة. ترافق كل ذلك مع تمرّدٍ فلاّحيّ هو الأضخم على الإطلاق.

مونتزر المسيح

في عام ١٥٢٠، رمى البابا الحرم الكنسي على لوثر، لكن أحد تلامذته كان مستعداً للذهاب أبعد مما فعل أستاذه. كان ذلك التلميذ اسمه توماس مونتزر (Thomas Muntzer) الذي صرف الأيام يدرس آثار آباء الكنيسة باليونانية والعبرية، ووقع تحت تأثير «مسيحٍ» هو نيكولاس ستورش (Niklas Storch) الذي اعتقد أن

تيري، آثار كار فوجده مقتولاً. اعتبرت الشرطة الحادثة انتحاراً برغم الأدلة التي تشير إلى جريمة قتل. واكتشف تيري أن بيركوفيتز وكار ثابرا على حضور اجتماعات شيطانية في منطقة يونكيرز في نيويورك حيث وجدت الشرطة خمسة وثمانين كلباً مسلوخاً في سنة واحدة سبقت جرائم القتل.

أظهر بيركوفيز معرفته بالقتل الطقسي الذي لم تلتفت إليه الصحف، وكتب في رسالة إلى أحد مبشري كاليفورنيا: « ...كنت عضواً في أحد المقاهي لا أستطيع الكشف عن نوعه أو اسمه لأني كان أقسمت على الصمت. إنه مذهب دموي... لا يتورع أعضاؤه عن اقتراق أي فعل.. حتى القتل».

نهاية العالم قريبة جداً: «سيحتل الأتراك العالم وسيليهم أعداء المسيح، عندها سيقوم من يختاره الله ويهزم الأشرار في المعارك.. وبعدها، يوم الحساب الأخير».

عندما التقى مونتزر بستورش، كان يشعر بعدم الرضى إزاء تعاليم لوثر الذي قال إن الإنسان لا يحتاج إلى الكنيسة لتغفر له خطاياه، بل يعوزه الإيمان بالله. تجاوزه مونتزر مؤكداً أن الإنسان قادرٌ فعلاً على الاتصال بالرب وسماع صوته. وعند حصول ذلك، يصبح الإنسان «حامل الروح القدس»، أي يصبح هو الرب!.

جعل مونتزر يبشر بين الفقراء والفلاحين لكنه هاجم لوثر كثيراً فطرده مجلس البلدة من زفيكاو (Zwickau) فقصد براغ الغاضبة لإعدام جون هوس (John Huss) وأخبر أتباعه عن كنيسته التي لن



تقبل سوى المنتخبين.. ولم يمضِ الوقت طويلاً قبل أن يطرد من هناك أيضاً.

في العام ١٥٢٣، استقر مونتزر في بلدة أليستيدت (Allestedt) الصغيرة يبشر فيها ويخدم القداس اللاتيني باللغة الألمانية، فاشتهر وقصده الفلاحون من البعيد ليسمعوا عظاته. وأتاه الدوق الساكسوني جون الذي كان قلقاً من آرائه الثورية، فأقام قداساً احتفالياً أكدّ فيه أن نهاية العالم قريبة جداً سيسبقها حربٌ وتدمير ومعاناة عظيمة. عاد الدوق جون إلى قصره يفكر في الأمر بينما احتفل مونتزر بقدرته على الإقناع.

لكن عندما وصل أتباعه وأخبروه أن مالكي الأراضي طردوهم من عملهم، أقام عظةً قال فيها إن الطغاة سيزاحون عن عروشهم.. «فقد بدأت النهاية» علم لوثر بأمر تلميذه وبميوله الغريبة فكتب إلى أمراء سكسونيا يحذرهم منه لكنهم رفضوا التحذير وجرّحوا في سمعة لوثر ووصفوه بأنه عبد الطبقات الحاكمة.

قامت ثورة الفلاحين في ألمانيا بتحريضٍ ومباركةٍ من مارتن لوثر، وهزمت جنود الأمراء وهاجمت الأديرة المنتشرة في القرى. وبحلول أيار/مايو عام ١٥٢٥، كان مونتزر قد جيّش جيشه الخاص، وبلغ ثمانية آلاف رجل، مصمّماً على قيادتهم إلى النصر المبين، خصوصاً بعد أن اقتنع بنفسه أنه المسيح وأنه يتقمص روح النبي دانيال. التقى جيشه بجيش الدوق جون في ١٥ أيار/مايو، لكن الفلاحين خافوا هذا العسكر الجرار وقرروا تسليم مونتزر كما طلب الدوق جون، وهنا أظهر مونتزر مواهبه القيادية فخطب خطبةً وعد الفلاحين فيها بالنصر وبالمناعة من نار المدافع قائلاً: «سألتقط قذائفهم النارية في كمّي هذا الثوب».

انكسر الفلاحون وأسِرَ مونتزر وعذب وقطع رأسه في ٢٧ أيار/ مايو ١٥٢٥، لتنتهي مرحلة التمرّد الألمانية إلى الأبد.

أحسّ الناجون من المعارك بالمرارة إزاء موقف لوثر، لكن هذا فعل الصواب.. فلو دعم مونتزر لقُطِع رأسه أيضاً وانتهت البروتيستانتية إلى الأبد.. أعطيت المقاطعات الألمانية حرية الاختيار بين الكاثوليكية والبروتستانتيه، فاختار معظمها تعاليم لوثر الذي تزوج من راهبةٍ فرّت من أحد الأديرة ورزق بستة أولاد ومات عن ثلاثةٍ وستين عاماً، بعد ثلاثين عاماً على ابتداء ثورته على البابا.

مذبحة مجددي العماد (Anabaptist)

الحلقة الدامية في الحرب الدينية هي مذبحة القائلين بتجديد العمادة (Anabaptists) يقودهم جون أوف لايدن (John Of Leyden).

برغم أن الأمراء الألمان ربحوا الحرب ضد الفلاحين، لكن روح مونتزر بقيت تخيّم على ألمانيا. وفي تلك الأثناء ضرب داء الموت الأسود ضربته الثانية عام ١٥٢٩ فقتل الآلاف ليرسخ في الأذهان ما قاله مونتزر عن قرب يوم القيامة. أطلق أتباع مونتزر على أنفسهم اسم «مجددو العمادة» أو (Anabaptists) إذ آمنوا بضرورة عمادة المسيحيين ثانيةً عند بلوغهم سن الرشد.

بعد موت مونتزر، انتقلت الشعلة إلى يد ميلكيور هوفمان (Melchior Hoffman) الذي كان مسالماً أمر أتباعه بانتظار القيامة بهدوء تام.. لكن ذلك لم ينقذه، إذ أعلن أن ستراسبورغ هي أورشليم الجديدة في ١٥٣٣، وأن الوقت قد حان.. حَبَسَ الأتباع أنفاسهم وكذلك فعل أعيان ستراسبورغ لكن السنة انصرمت دون

أي دلائل على القيامة، فسجن هوفمان وعلّق في قفصٍ ليموت بطيئاً.

ظهر غيره، بيرنارد روشمان (Bernard Rothman) وجان ماثيسون (John Matthyson) الذي أعلن أنّ مونستر (Munster) هي أورشليم الجديدة.

في شباط/فبراير ١٥٣٤، تحققت مخاوف الكاثوليك عندما وصل مجددو العمادة إلى المجلس البلدي وأصبحوا حكّام مونستر. فتعرضت كنائسهم للتدمير وأجبر من رفض التحول إلى السلك أن يمشي عارياً خارج المدينة في الجو البارد القارس، ليموت منهم الكثيرون.

حاصر جنود المطران ڤون فالديَك (Von Waldeck) بلدة مونستر، لكن أنصار تجديد العمادة لم يخافوا إذ اعتبروا أن الله معهم، لكن الجنود دخلوا البلدة وعلقوا رأس ماثيسون على حربةٍ طويلةٍ فآلت القيادة إلى جون الآتي من ليون، وكان خياطاً أفلس قبل أن يصبح أمل الآلاف من المتحمّسين. حوّل هذا بلدة مونستر إلى تعاونية دينية جماعية أشاع فيها الملكية وأمر الناس أن يتناولوا الطعام جماعياً في قاعات كبيرة. كما أباح الحرية الجنسية محللاً للرجال قدر ما يريدون من الزوجات. تقاطرت النساء إلى سرير الدعي جون فوجد نفسه ملزماً بإرضاء ست عشرة امرأة. وهكذا أمست الحياة في أورشليم الجديدة عابقةً بكل أسباب اللهو، وتحول صيف عام ١٥٣٤ إلى احتفالٍ مستمر تناول أثناءه الناس الطعام بشراهة وتمتعوا بمنظر أعدائهم يموتون ويُحرقون. أُلغي التعامل بالعملات إلا بميداليات سك عليها رسم جون واسمه.

حلّ الشتاء، وحاصر جند المطران البلدة يدعمهم عسكر

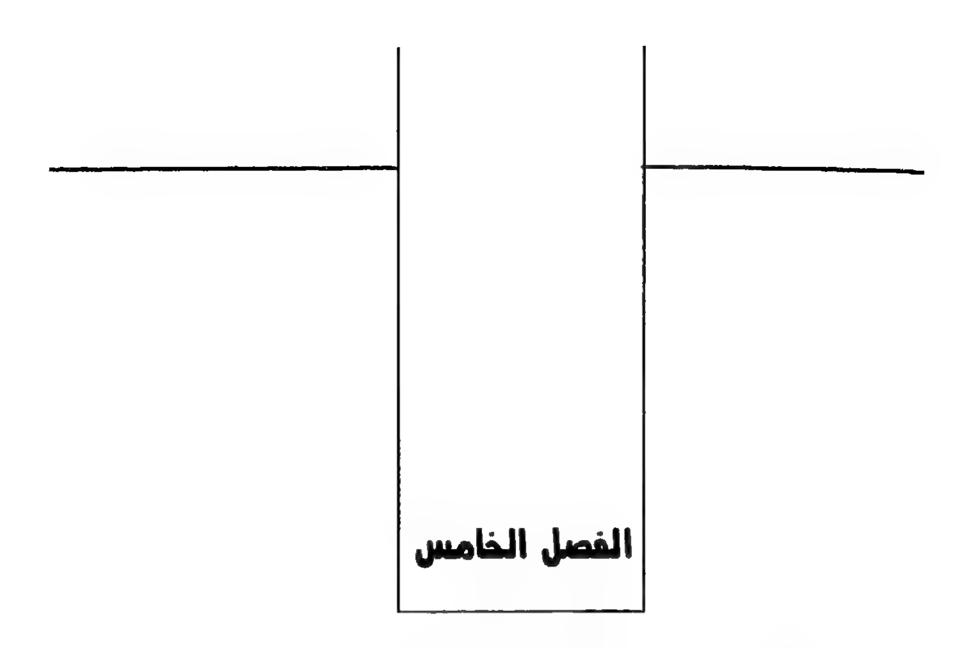
الأمراء، واكتشف أهل البلدة خطأهم في الإقبال على الطعام بشراهة دون التفكير في أيام الحصار الآتية، فقسا الجوع عليهم واضطرهم إلى ذبح الكلاب والقطط وأكل لحومها.

وبعد شهور من المجاعة، أعلن جون أن من يبغي مغادرة المدينة فليفعل، فمشى نحو ٩٠٠ شخص في مسيرة عبر بوابة السور لكن الجنود رفضوا السماح لهم بالخروج وتُرِكوا للجوع والموت خارج السور. وفي حزيران/يونيو، وصل الأمر إلى حدٍ مأساوي حضّ بعض أعوان جون على مساعدة الجنود في الدخول إلى البلد خلسةً، فتسلل إليها ٤٠٠ جندي في ليلة ٢٤ حزيران/يونيو ١٥٣٥ ليبدأوا الصراع عند الفجر يساندهم هجومٌ عنيفٌ من الخارج عبر نقاط الضعف التي دلّ عليها الخونة، فحصلت مذبحةٌ رهيبةٌ وقطعت رؤوس جون وأعوانه بعد محاكمات دامت أشهراً عديدة.



هرب عددٌ من مجددي العمادة إلى بريطانيا وتوطنوا فيها بقيادة هنري نيكولاس ليُعرفوا فيما بعد باسم «عائلة الحب». فقد أعلنوا أنّ أصل الدين المحبة، ولا حاجة لشريعةٍ أخرى، فأعلنت الملكة إليزابيت أن هذا المذهب يستحق اللعن.

وفي عهد الملك شارلز الأول، قام مذهب غريب مشابه لمذهب «الروح الحرّة» يؤكد أن الخطيئة وهم وأن الزنا والسكر والتجديف والسرقة ليست جرائم. وفي هذا الوقت قام داعية جديد اسمه جورج فوكس في بريطانيا مهاجماً الكنيسة وقدر على لفت أنظار أوليڤر كرومويل (Oliver Cromwell) وأنشأ مذهب «جمعية الأصدقاء»؛ وظهر غيره كجايمس تايلور الذي أقنعته النساء أنه المسيح وحوكم وأحرق لسانه لتمسكه بأنه ابن الله، فتوفي في عام ١٦٦٠.



الفصل الخامس

مُسَحاء أرض الفرص

٥

النبي السامّ

كان روبرت ماثيوز في التاسعة من عمره عندما اكتشف قدراته على الإقناع. ففي عام ١٧٩٧، وبينما كان الأستاذ يوزّع على تلامذته السكاكر والفاكهة، ادعى ماثيو أن هذه تخصّه وحده، وأن عمّه «رجل الرعد» الساكن في غيمةٍ عاصفةٍ سيغضب إن لم يقدموها إلى ابن أخيه. وبعد قليل، دوّى الرعد في السماء فوهب الجميع سكاكره وفاكهته لروبرت.

نما روبرت ماثيوز وفي نفسه إيمانٌ راسخ أنّه واحد من «المختارين»، وقرر أن يصبح نجاراً عندما وصل السادسة عشرة إذ اعتبر هذه الصناعة «الهية».

هام روبرت في بقاع الأرض عاملاً في مهنته مبشراً بتفسير جديد للإنجيل وأطلق عليه الناس لقب «يسوع الوثّاب» لكثرة ما كان يقاطع الواعظ في الكنيسة لمناقشته. ثم تزوج روبرت واستقر في ألباني (Albany) في مدينة نيويورك.

وبعد سنوات من السكينة، قرر ماثيوز فجأة أن يأخذ أولاده إلى الغابات، فتوجه بهم إلى هناك قبل أن تعرف والدتهم فترفض

رغبته، لكنه وُجِدَ وأبناءه يعانون من الجوع بعد ثلاثة أيام فقط ولكنه رفض مغادرة الغابات، وبقي هناك حيث هبط عليه الإلهام أنه روح القديس متّى متقمصةً جسده، وعليه التبشير بالرسالة الجديدة وأصبح يسمي نفسه النبي ماتياس (Matthias).

وفي هذا الوقت، هبط إلهام آخر على إيليجيا بيرسون (Elijah Pierson) رجل الأعمال الناجح. فقد كان على متن حافلةٍ قرب وال سترين عندما ظهر عليه ملاك لينبئه أن في جسده روح النبي إيليّا وعليه القيام بخدمة الرب.

قام بيرسون فوراً بإنشاء «النادي الالهي» ليجذب إليه الأتباع، وركّز إرساليةً له في منطقة بوري هيل (Bowery Hill) ليعيد المومسات والبغايا إلى الدين لأنهن ـ حسب قوله «سليلات مريم المجدلية». مرضت زوجته فطمأنها أنه سيحييها إن ماتت.. لكن صلواته وزيوته لم تنقذها من غياهب الموت، فأعلن أنه رأى نبيّ الرب الذي سيأتي ليُحل العدل والإسلام وأمر أتباعه وأهل بيته ليكونوا على أتم الاستعداد.

في هذه الأثناء، كان النبي ماثياس يوطّد حركته ويبحث في نيويورك عن مموّل ثري، فوجده وكان يدعى ميلز (Mills) وتمكن من استمالته إلى صفه بتبشيره أن ديانته مرتكزة على الاعتدال والإيمان في كلمة الرب. إقتنع ميلز بنبوءة ماثياس ورجاه أن يقبل المال منه. لكن عائلة ميلز لم تنطلِ عليها الحيلة فقطعوا الإمداد عن ماثياس ووضعوا ميلز في مصحّة عقلية بعد أن حجروا على أمواله. وعندما هددهم ماثياس باللعنة وبالجحيم، اجتهدوا لكي يُعرض على قسم الأمراض العقلية في إحدى المستشفيات. وبعد زمن

قضاه خلف القضبان، خرج من السجن وتوجه إلى أحد أصدقاء ميلز.. إيليا بيرسون.

عندما وصل إلى بيت بيرسون، أدخلته الطاهية السوداء، إيزابيلا، وسألته: «هل أنت الرب؟» فأجابها دون تردد وهو داخل: «أنا هو».

تكلّم بيرسون مع ذلك الرجل الغريب لساعات حتى اقتنع أن هذا هو من ينتظر. كافأه النبي ماثياس بالإعلان أن في بيرسون روحي إيليا ويوحنا المعمدان. واستقر ماثياس في منزل بيرسون وعاش كالملوك ثم انضم ثري آخر إلى هذه الدعوة.. وكان بنجامين فولجر (Bengamin Folger).. فبعد أن اقتنع بقداسة ماثياس أهدى إليه صولجاناً مرصعاً بالحجارة الكريمة «ليقتل به الشيطان» وأثواباً زهرية فضفاضة مزينة بالذهب ومقصّبة بالفضّة.

لم يطل الوقت حتى انتقلت أملاك آل بيرسون وآل فولجر إلى الداعية الجديد إضافة إلى عشرات الآلاف من الدولارات، ثم طلب من أتباعه مرافقته إلى جبل صهيون. وقد أطلق هذا الاسم على المزرعة الرائعة التي صادرها من آل فولجر باسم الرب.

في جبل صهيون، عاش ماثياس كسلطان وطلب من الجميع أن يخدموه، حتى كان يستحم في بركةٍ ويأمر آل بيرسون وآل فولجر أن يقفوا عراة أمامه ليرشهم برذاذ الماء الذي طهّره. وفي أحد الأيام أقنع فولجر أنه رأى رؤيا تؤكد أن السيدة فولجر هي «أم المملكة» وعليه أن يتخلى عنها كي يتزوجها هو، عارضاً ابنته التي تعيش مع والدتها في ألباني عوضاً عنها. إضطر فولجر إلى القبول. لكن إيليا بيرسون تمرّد يوماً بعد أن شكك في هذا «النبي» الذي يجبره على

تصرفات لا تليق بنبي مزدوج. وبعد مشاحنات عديدة، أخذ بيرسون ابنته وغادر جبل صهيون إلى بيته.

بعد أسابيع، فوجيء بيرسون بالجميع يزورونه في بيته، وبماثياس يقدّم إليه سلّة من التوت البرّي الذي يحبّ، فأكل منه وأصيب بالتشنجات المعوية والمغص الحاد وغاب في غيبوبةٍ لم يصحُ منها أبداً، فرد النبي هذا الأمر إلى أن «خمسين شيطاناً دخلوا جسده عندما وقع في خطيئة الشك»، ثم اعترف أنه هو الذي قتل بيرسون بتوجيه اللعنات عليه.

برغم هذا القوى التي أظهرها، أخذت مملكته تتداعى. فعندما ولدت زوجته الروحية (السيدة فولجر سابقاً) بنتاً، كان هو تنبأ بأنه صبي، فقدت إيمانها به وانضم إليها زوجها بنجامين فولجر وطلبا منه الرحيل عن منزلهم، خصوصاً عندما اكتشفا أنه أدى بهما إلى الإفلاس النهائي. فهددهم باللعنة والجحيم، ومرضوا لكنهم شفوا، لسوء حظه.

في هذه المرّة، لم ينجُ ماثياس بل مثل أمام المحكمة وشتمها ولعنها بغية تخويف القاضي الذي لم يهتم لأمره بل أضاف «شتم المحكمة الموقرة» إلى لائحة الاتهامات.

لو تمت المحاكمة بعد عشر سنوات، لكان حكم عليه بالإعدام لإقدامه على تسميم بيرسون وآل فولجر، لأن اختبار الأرسينك لم يظهر قبل ١٨٤٧، ولذلك حكم عليه فقط بأربعة أشهر لشتمه المحكمة، وبرّيء من التهم الأخرى لانتفاء الأدلّة.

بعد خروجه من السجن، حاول أن يعود إلى حياته السابقة وادعاءاته القديمة، لكن أحداً رفض تصديقه، فعاش ثرياً بعد أن استولى على ثمانين ألف دولار من بيرسون وفولجر. وفي آخر حياته

التقى بمؤسس الكنيسة المورمونية، جوزيف سميث، فقال هذا عنه إنه مثقفٌ لامعٌ لكن عقله مليء بالظلام».

المورمون

ولد جوزف سميث في العام ١٨٠٥ من عائلة تمارس الزراعة في ڤيرمونت (Vermont) وانتقل معها إلى بالميرا في نيويورك.

يؤمن الدكتور سيروس تيد، ويعرفه أتباعه باسم كوريش، أن الأرض مجوّفة، وأن الحياة موجودة فقط السطح الداخلي. وهو توصل إلى هذه النتجية باقتناع ذاتي باستحالة أن يكون الكون مطلقاً غير محدود. فإن لم يكن كذلك، فلا بد أن لها شكلاً وحدوداً، ويخلص تيد إلى القول إن الحدود هي الأرض التي تحت أقدامنا. كل شيء فوق رؤوسنا يدخل ضمن الأرض، أما الشمس فهي مركز الكون.

سافر الدكتور تيد إلى أميركا خلال سبعينات القرن الماضي، يبشر بتعاليمه ويجمع الأنصار. وفي العام ١٨٨٨، تكوّن الاتحاد الكوريتشي في شيكاغو، وابتدأ أعضاؤه التجارب العلمية بغية إثبات فكرتهم أن تكوّر سطح الأرض سببه انخداع البصر. ثم انتقل كوريش إلى ايستيرو في فلوريدا حيث الشاطىء المسطح هناك حقل تجارب صالح جداً. لكن تجاربه واختباراته أتت بنتائج مخالفة لما يبتغيه. وبرغم ذلك، نمت قوة الكورشيين وازداد عدد أتباعهم. في العام ١٩٠٨، وقبل ٣ أيام من عيد الميلاد المجيد توفي الدكتور تيد. اعتقد أتباعه بقيامته يوم الميلاد، وعندما لم يفعل، أمرتهم السلطات بدفن الجثة قبل أن تتحلّل. أطاعوا السلطات وبنوا قبراً كبيراً لزعيمهم على جزيرة إيستيرو. وبعد سنوات قليلة، اختفى القبر دون أن يترك أثراً. استمر الكوريشيون ينشرون تعاليمهم وأسسوا جامعة ليكملوا ما بدأه زعيمهم.

كانت تلك حقبة الغليان الديني وتعدد المذاهب في أميركا ـ الميثودية (Methodist) والمشيخانية (Presbgtaroanism) والمعمدانية (Baptist) ـ والصراع على استمالة الأنصار: فأصبحت والدة جوزف مشيخانيةً لتناصر المذهب الذي أسسه جون كالڤين في جنيف عام ١٥٣٦.

زار جوزف سميث كل الفرق الدينية المتناقضة، لكنه لم ينضم إلى أي واحدة منها بل أخذ يفكر عميقاً في الدين. وفي ربيع عام ١٨٢٠، وبعد أن قرأ نصوصاً في الإنجيل، ذهب إلى فيء بعض الأشجار وابتدأ في الصلاة، وهناك أتاه الإلهام: رأى نوراً ساطعاً وفي داخله رجلان واحدٌ يشير إلى الآخر ويقول: «هذا ابني الحبيب



فاستمع إلى ما يقول». عندئذٍ، سأل سميث الرب عن أي فريقٍ ينضم إليه فأجابه: «لا يوجد واحدٌ بينهم يستحق». لقد كانوا خطأة جميعهم في عيون الله. وعندما عاد إلى بيته أخبر أمه برؤياه وحثها على ترك المشيخانية إذ أنها غير صحيحة أبداً.

بقي جوزف على طبيعته ولم يتصرّف كما يفعل من يناديهم الرب. وبعد ثلاث سنوات، في ليلة ٢١ أيلول/سبتمبر عام ١٨٢٣، كان جوزف يصلي صلاته اليومية قبل النوم عندما أتاه النور ثانيةً فرأى رجلاً بثوبٍ فضفاضٍ أبيض «لا تطأ قدماه الأرض» يقول له إنه ملاك يدعى «موروني» (Moroni) ويحادثه عن تاريخ سكان أميركا القدماء مخطوط على صحون ذهبية. ظهر عليه الملاك ثلاث مرّات ليكرر ما قاله في المرّة الأولى. وفي اليوم التالي، ظهر مرّة أخرى عندما كان جوزف يجتاز أحد الحقول وأرشده إلى مكان الصحون.

سار جوزف على الخطى التي أشار إليها موروني حتى وصل قمة هضبة كوموراه (Cumorah) التي تبعد ٤ أميال عن منزلهم. هناك، وجد حفرةً تحت صخرة بداخلها صندوق يحتوي على صفائح ذهبية وأخرى فضية ـ أسماها مُوروني أوريم (urim) وثومّيم (Thumim) ـ عليها تفسير الكلمات المحفورة على الصفائح الذهبيّة.

لم يسمح موروني لجوزف بأخذ الصفائح بل أخبره أنه يلزمه أربع سنوات من التحضر قبل أن يتأهّل لترجمة المكتوب. وفي العام ١٨٢٧، كان جوزف مستعداً للحصول على الصفائح الذهبية، فأخرجها من مخبئها وأتى بها إلى منزله دون أن يطلع أحداً عليها، حتى زوجته إمّا (Emma) التي ساعدته في الوصول إليها. وبعد

شهرين، انتقل وزوجته إلى هارموني في بينسيلفانيا حيث استقر جوزف لينكب على ترجمة الكلام المذهب بالاستعانة بالشروح المفضّضة، جاعلاً طاولته خلف ستارة سميكة لئلاّ يراه أحدٌ ما. ثم عرض ما أنتجه على أستاذ نيويوركي اسمه أنطوان (Anton) أثبت أن الحروف التي وجدها مصرية قديمة حقيقية، لكنه سحب إثباته عندما علم أن مصدر الكتابات ملاك!

ظهر «كتاب مورمون» وفيه توثيقٌ لكيفية قدوم الناس من برج بابل إلى أميركا واستيطانهم فيها في القرن الخامس بعد الميلاد، وتحول المستوطنين إلى العنف. «وقبل ألف ومئة عام، وصل المزيد من المستوطنين إلى شيلي (Chile) فيهم أربعة أخوة: أولهم جدّ العرق الأبيض والثلاثة الباقون أصول الهنود. وبعد موت يسوع على الصليب، ظهر في أميركا وبشر بالأنجيل. وفي عام ٣٨٥ بعد الميلاد، وقبيل أن يباد البيض على يد الهنود قرب هضبة كوموراه كتب نبيّهم مورمون (Mormon) التاريخ ودفنه في بطن الهضبة».

بعد نشر الكتاب عام ١٨٣٠، أعاد جوزيف سميث الصفائح الذهبيّة إلى الملاك موروني دون أن يراها أحدٌ رغم أن أستاذاً اسمه أوليڤر كودري (Oliver Codery) ساهم في الترجمة خلف الستار.

لم يشك من اضطلع على الكتاب أن سميث مبتدع القصة بكاملها، لكن هذا بدأ يجمع الأتباع ويربي العداوات، فقرر الانتقال غرباً حيث كان الأتباع قد أسسوا كنيسةً في أوهايو، فأقام سميث فيها وشرّع شيوع الملكية وأطلق على الأتباع لقب «قديسو اليوم الأخير» (The Latter Day Saints).

أتباع آخرون استقرّوا في ميسّوري، فارتحل سميث إليهم بعد ظهور المتاعب في أوهايو، لكن هؤلاء جميعهم اضطروا للرحيل إلى بلدة نوفُو (Nauvoa) في إيلينوي (Illinois) تحت ضغوط العصابات، ليلاقوا ترحيباً فاتراً هناك وصل بعد أيام إلى حدود الكره. هناك أعلن سميث أن الرؤيا التي جاءته تدعوه إلى إباحة تعدد الزوجات، ودخل في نقاشٍ حادٍ مع حاكم الولاية مما جعله يقرر التوجه جنوباً والتوغل أكثر من أجل بناء مدينة القديسين. وقبل أن ينفذ قراره استصدر الحاكم فورد (Ford) أمراً بالقضاء على مذهب القديسين، فاعتقل سميث وأخوه هايروم (Hyrum) والكثير من الأعوان والأتباع وزجهم في السجن. وفي ٢٧ حزيران/يونيو ١٨٤٤، هاجم أناس هائجون السجن وقتلوا سميث وأخاه، فتفرق أتباعهما، وقادهم أحد كبار أعوان سميث بريغهام يونغ إلى الصحراء وأتى بأتباع آخرين من أوروبا ليُنشىء مدينة سولت لايك (Salt Lake).

وكما يستدل مما سبق، لطالما استدرجت المورمونية العداء والمقاومة لأنصارها. فقد عثر على رواية بقلم المحترم سيمون سبالدينغ (Simon Spalding) تدعي أنها المصدر الحقيقي لكتاب مورمون. وفي منتصف عشرينات هذا القرن، وجد بريغهام روبرتس (Brighan Roberts) مؤرخ الكنيسة المورمونية، أن كتاب مورمون مشابه جداً لكتاب آخر هو «منظر العبرانيين» كتبه المحترم إيثان سميث (Ethan Smith) عام ١٨٢٣، وكشف بعض التفاصيل التي لا بد أن سميث اخترعها من بنات أفكاره.

أياً تكن الحقيقة، يبقى سميث الداعية الأكثر جاذبية وتأثيراً في القرن التاسع عشر.

جماعة أونيدا (Oneida)

أهم أسباب العداوة تجاه المورمونيين هي بدعة تعدد الزوجات، وقامت العداوة نفسها تجاه داعية آخر من ڤيرمونت (Vermount) استطاع تجنب القتل وإنشاء أكثر الجماعات نجاحاً وشهرةً في تاريخ الانشقاقات الدينية.

كان جون همفري (John Humphrey) بالنسبة لتلاميذه نبياً وزعيماً روحياً رائعاً، ولأعدائه رجلاً متحرراً تهدد نظرياته في حرية الحب والزواج المعقد المجتمع.

بين ثلاثينات وأربعينات القرن التاسع عشر، امتدت حقبة



النهضة الدينية في أميركا حتى عرفت إحدى مناطق مدينة نيويورك «بالمنطقة المحروقة» بسبب الحرائق التي أشعلتها هذه النهضة وأذكاها الانبعاث الديني المستمرّ. فقد ظهر رجال، أمثال هيرام شيلدون (Hiram Sheldon) وإيراسموس ستون (Erasmus Stone) وجارڤيس رايدر (Jarvis Rider) يبشرون في المدينة واتخذ أتباعهم لقب القّديسين، وبحثوا في أمر الزواج المعتمد وفي مدى صلاحه في النعيم الجديد والأرض الجديدة. وأول من وضع إجابة لهذا التساؤل كان جون همفري نويس (John Hamphrye Noyes).

ولد جون في منزل سياسي إذ كان والده شيخاً في مجلس الشيوخ الأميركي. درس الحقوق ثم اللاهوت وكان يتمتع بجاذبية وثقافةٍ عاليةٍ جداً وأمضى سنتين من حياته، في الجدال الديني. وحين وصل إلى الثانية والعشرين، أتته إجابةٌ شافية حول «هل هو خاطىء فعلاً؟» فبينما كان يقرأ في إنجيل يوحنّا، وجد أن يسوع الناصري أعلن أنه سيعود ثانية خلال جيلٍ بعده، أي في سنة ٧٠ ميلادية. واعتبر نويس أن الجنس ضروري لاستمرار الجنس البشري، وأكد أنه استوحى من الإنجيل أن الرجال متزوجون من جميع النساء وبالعكس. وأخذ يبشر ممجداً الجماع الجنسي داعياً إلى اعتباره أحد الأسرار الكنسية.

في الثالثة والعشرين، عاد إلى منزله في ڤيرمونت فاستجاب له أفراد عائلته. تزوج هناك من ابنة الحاكم التي كانت إحدى تلاميذه، وتزوجت أخته من ج.ل. سكينر (J.1.Skinner). فأنشأ جاليةً واستوطن في سبعة بيوت ومخزن كبير على مساحةٍ شاسعةٍ من الأرض الخصبة، حيث كان الأتباع يصرفون بعد ظهر كل يوم

في الزراعة والحراثة ليؤمنوا موارد الجماعة، والوقت المتبقي في الصلاة والجدال والقراءة وتعليم اللغات كاللاتينية واليونانية والعبرانية.

في هذه الأثناء، كان نويس يعالج أمر العلاقات الجنسية حتى «جاءه الإلهام» بالحلّ عام ١٨٤٦. فقد وجد أن العلاقات الجنسية تنتج إنتاجاً مكروهاً على شكل أطفال، فقد استولد هو وزوجته هارييت خمسة أطفال في ست سنوات. الحل ليس صعباً.. على الرجال والنساء أن يتواصلوا بشرط أن يجتهد الرجل في الإقتناع من القذف، في كبح نفسه.

لم يكن نويس من النوع الكتوم ـ بخلاف الدعاة الآخرين ـ فنشر تعاليمه حول «كبح النفس» و«الزواج المعقد» (كل رجل يعتبر كل امرأة زوجته وبالعكس)، مما أثار غضب جيرانه فتقدموا بالشكاوى ضده ليتهم فيما بعد بالزنا. لكنه رفض أن يهدم بعض السخفاء ما بناه بالإلهام والرؤيا، فانتقل وصحبه لينضموا إلى إخوانهم الذين استوطنوا على ضفاف بحيرة أونيدا (Oneida)، وذلك عام ١٨٤٧.

هناك، أجبر الأتباع والأنصار على النوم في الأسطبلات والخيام لمدّة طالت ١٢ عاماً واشتغلوا بالصناعة فأنتجوا حقائب السفر والفاكهة المعلّبة والحرير الصناعي.

بعد سنتين من انطلاق هذه الجمعية، افتتحت لها فرعاً في بروكلين ووالينغمورد ونيومارك ويوتني وكامبريدج ومانليوس، كما وصل عدد أفرادها إلى ٣٠٠ عضو، بنوا بيوتاً حجريةً واسعةً ومعامل ومكاتب ومدارس واسطبلاً ومصنعاً للنجارة. كما استعانت الجمعية بأكثر من ٢٠٠ عامل خارجي عوملوا جيداً.

في هذه المستوطنات، كان الرجل حرّاً في انتقاء المرأة التي يرغب في نكاحها، على أن يبلغها بذلك من طريق طرفٍ ثالث.. وكذلك الحال بالنسبة للمرأة التي تشتهي أي رجلٍ من رجال الجماعة.. والجماع عندهم يعني الولوج وانتشاء المرأة دون الرجل الذي منع من الوصول إلى النشوة حتى بعد انتهاء الجماع.

كان الذكور يخسرون عذريتهم بعد بلوغهم بقليل، لكن الإناث كن يتأخرن قليلاً. وقد استولد نويس بعدما تجاوز الثامنة والخمسين ثمانية أطفال من زوجات عديدات.

مُنِعَ تقارب الأولاد في المستوطنات، لكن سُمِحَ لهم بالحرية في الحركة والرقص والغناء تعويضاً عن عاطفة الوالدين التي يُحرمون منها. فبعد أن تلد المرأة طفلها يؤخذ منها ليوضع في بيت الأطفال، فلا تراه قبل أن يبلغ الثالثة من عمره، إذ ذاك تستطيع أن تراه في النهار فقط. وعندما يبلغ الرابعة عشرة، يترك بيت الأطفال إذ يكون قادراً حينها على الجماع الجنسي ومستعداً للانضمام إلى الجماعة.

لم تواجه الجماعة المشكلات الداخلية، بل واجهت مشكلة خارجية وحيدة هي موقف العالم الخارجي منها. فذلك الدستور الأميركي أباح حرّية الاعتقاد الديني لكنه لا يتفق والسلوك الإباحي الصارم. وألدّ أعداء هذه الجماعة، كان البروفيسور جون ميرز (John Mears)، الذي وصفها بعبارة «يوتوبيا الفحش» ودعا إلى تدميرها. لكن جهوده، وجهود غيره من المشيخانيين ذهبت سدى.. حتى آن أوان تصدعها من الداخل إذ بدأ شباب الجيل الجديد يشككون في تعاليم نويس. وكان هذا نفسه قد تعب وأراد الراحة والتقاعد، فتنازل عن عرشه «كأب الجماعة» إلى ابنه الدكتور

ثيودور نويس، لكن هذا التنازل زاد التشقق في الطائفة والارتداد بين أعضائها.

فضّل نويس الابتعاد، فرحل إلى شلالات نياغار عام ١٨٧٦، وكان بلغ من العمر خمسةً وستين عاماً. ورأت جماعة أُنيدا أن كبح جماح الغريزة الجنسية هو الطريق الوحيد لتهدئة الأخصام الهائجين، فأعلن التوقف عن العمل بقانون «الزواج المعقّد» والعودة إلى قانون «العزوبة أو الزواج»، ففضل الجميع الزواج. لكن التوقف عن العمل بالزواج المعقد يعني إلغاء أهم دعائم الطائفة، مما سبّب تبدلاً في الروح الجماعية وتحوّلت طائفة أونيدا إلى «شركة مساهمة» مبتعدةً عن الشيوعية، فازدادت الانقسامات في الطائفة بدخول العوامل التجارية إليها يواكبه الجشع.

توفي نويس عام ١٨٨٦ دون أن يتخلخل إيمانه بمبادئه. ويختلف المؤرخون على وصفه. فبعضهم يصفه بـ «الرجل الطويل الشاحب ذي اللحية الناعمة والعينين الحالمتين والجبهة النبيلة»، وبعضهم الآخر يؤكد على بشاعته وعلى لحيته المشعثة الممتدة من الأذن إلى الأخرى. برغم ذلك، اعترفت ثلاثٌ وخمسون امرأةً أنهنّ زوجات هذا النبي، وأنهن كن سعيدات لأنه اختارهن وانتقى لهن أزواجاً ليستولدهنّ أولاداً.

نتعلّم من هذه الدراسة أن هؤلاء الدعاة يأتون في كل الأحجام والمقاسات ومن كل الأنواع السيكولوجيّة، ابتداءً بمتقبلي الإلهام إلى الواهمين.

هنري جايمس برنس

المحترم هنري جايمس برنس (Henry James Prince) كان من أشهر مبشّري «روح الحب» في القرن التاسع عشر. فبعد أن أنهى دراسته في كلية اللاهوت عام ١٨٣٧، أصبح راعي أبرشية شارلنيش. (Charlinch) قرب بريدج واتر (Bridge Water) في سمر سيت (Somerset) فابتدأ يبشّر بأفكاره ونظرياته محاطاً بتلميذاته الحسناوات. وعندما وصلت الأخبار إلى المطران، مُنِعَ مِن التبشير. فترك الكنيسة واندمج في الناس معلناً لهم أنه النبي إيليا. وصدّقه أتباعُهُ دون شك.

أمسى برنس من أشهر المبشرين في زمانه. فبواسطة الأموال التي جمعها من الأتباع الذين باعوا أملاكهم، اشترى أرضاً واسعةً وبنى عليها «مسكن الحب»، فانضم إليه ستون أنثى ملبيّات دعوته للدخول في طائفته.

لم يبشر برنس علناً بحرية الحب، لكنه مارس هذه الحرية معتبراً تلميذاته زوجات الرب. ولم يحرّج هو من أن ينادى بصفة الجلالة واسمها، فكانت تصله رسائل معنونة «سيدنا الاله».

مرّة، دعا أتباعه إلى حلقه عبادة كانت عبارة عن جلسة جماع بينه وبين رفيقته الحميمة الآنسة باترسون (Paterson). وعندما حملت منه، أقنع الجميع أنها لن تلد أبداً. وعندما خاب ظنه، قال

تؤله كنيسة سوبجينيوس في تكساس بوب دوبس، فصوّره أتباعه في أيقونات يدخن الغليون وشعره إلى الخلف. يُطلب من أتباعه، غير تبرعاتهم المالية، رفض كل أفكار السوبجينيين الآخرين الخارجين على المذهب مؤنشئي مذاهبهم الخاصة.

أن هذه الولادة هي آخر تجارب الشيطان في خرقهم. بعد ذلك، بدأت مرحلة القضايا القانونية إذ رفعت ثلاث نساء دعاوى لاسترجاع ٦آلاف جنيه إسترليني أخذها منهن.

صدمت بريطانيا الفيكتورية بالأسرار التي كُشِفَت أثناء المحاكمات، ممادفع بيرنيس إلى اعتماد التبشير السرّي، مستمراً في حياته «السعيدة» وحوله حريمه الخاص، حتى وفاته عام ١٨٩٩ عن ثمانية وثمانين عاماً.

قبل سنتين من وفاته، اتخذ برنيس تلميذاً اسمه هيوغ سميث ـ بيغوت (Hugh) (Smeth - Pigott) وقرّبه منه لما رأى فيه من جاذبية وقوة شخصية، فتولى بعده الزعامة والتبشير مثيراً الرأي العام البريطاني. وفي يوم الأحد ٧ أيلول/سبتمبر ١٩٠٢، أعلن «تطوبه وتقدّسه».

وفي عام ١٩٠٤، استقر في مسكن الحب مع زوجته وعشيقته التي وهبته طفلاً. وعندما أعلنت المحكمة المطرانية أنه «لا أخلاقيّ ووسخٌ وشرير» علّق بيغوت قائلاً: «لا يهمّ ماذا يقولون.. فأنا الإله!»

ذهب إلى أميركا مبشراً في العلن، باحثاً عن الحسناوات سرّاً، وتوفي هناك عام ١٩٢٧، مخيباً آمال أتباعه الذين اعتبروه خالداً لا يموت.

الفصل السادس

مهووسون وطوائف متعصّبة في القرن العشرين

٦

فرانز كريفّيلد، أو يشوع الثاني

في صباح ١٧ نيسان/إبريل ١٩٠٦، رفع ذلك الرجل الملتحي يده وصرخ بصوتٍ رهيبٍ: «أيا ربي أنزل لعناتك على سان فرانسيسكو وبورتلاند وكورفاليس وسياتل»، ثم صعد إلى متن القطار المتوجه إلى نيويورك في أوريجون، حيث كان أتباعه ينتظرون وصوله ليبشروه أن سان فرانسيسكو ضربها الزلزال ودمّرها عن بكرة أبيها. أجابهم هذا الداعية: «عرفت أن الرب سيستجيب لدعوتي».

كان هذا الرجل فرانز أرموند كريفّيلد الذي دخل تاريخ الدعاة الدجالين عام ١٩٠٣ إذ طرد من الجيش، فالتجأ إلى الغابات في أوريجون ليعود بعد أشهر قليلة بشعرٍ طويل ولحية مشعثة وبلقبٍ جديد: يشوع الثاني.

كما النبي الآخر الذي عاصره، غريغوري راسبوتين، أظهر فرانز كريفيلد انبهاراً بالنساء، لكنه لم يكن يستطيع الشفاء كما راسبوتين، لهذا خاب فرانز ونجح الروسي.

نشر كريفيلد تعاليمه في كوفاليس، فانضم إليه بعض الأتباع

من ذكورٍ وإناثٍ، لكن الذكور تركوه لسببٍ ما وبقيت زوجاتهم ملتصقات بهذا «النبي» الذي أمست دعوته مثار رفضٍ وتقزز. محاطاً بالنساء، كان يطلب الروح القدس لتحل عليهن، فيبدأن الرقص والغناء.. وما إن يتصاعد الهياج الهستيري حتى يأمرهم يشوع (أوجوشوا) بالتخلص من الثياب ويرمي بأثوابه هو في سماء الغرفة.. تقتدي النساء به حتى يصبحن عاريات تماماً فيرتمين على الأرض مهمهمات وصارخات.

بدأ القلق يتسلّل إلى رجال كورڤاليس، وتركت النساء بيوتها لتلتحق بالنبي، خصوصاً بعد إعلانه عن بحثه عن امرأة ستصبح والدة المسيح الثانية.. بالطبع هو الأب. جرى هذا البحث عن الأم الثانية في جزيرة كيجر (Kiger) في وسط نهرٍ ما، فصلى النبي وأتباعه ليلاً ورقصوا عراة نهاراً طوال الصيف. بحلول الشتاء، عاد جوشوا إلى كورفاليس واستقر في منزل أ. هانت (Hunt) وابنته «مود» (Maude) التي كانت من أشد المعجبات به.

أدّت طقوس يشوع إلى قيام العداء ضده واستفحاله واقتيد إلى المحكمة برفقة مساعده الأول الأخ بروكس لحضور جلسةٍ مخصصةٍ للبحث في سلامة عقله، فوجدته هيئة المحكمة سليماً لكنها سألته الخروج من المدينة. رفض الرحيل وعاد إلى منزل آل هانت. بعد ذلك، بدأت الصحف تنشر صور ربات بيوت كورڤاليس يرقصن عراة في غابات جزيرة كيجر.

في الرابع من كانون الأول/ديسمبر ١٩٠٤، ساقه جمعٌ من الرجال إلى خارج كوڤاليس ورموه هناك، لكن السيدة هانت وابنتها أعادتاه إلى المنزل ليتزوج بعد أيام من مود. وعاد إلى تعاليمه وأوهم زوجته أنه ذاهب إلى بورترلاند لزيارة إحدى نائباته هناك.

وفي أحد الأيام، عاد زوجها ليجد هذا النبي «يبشّر» عارياً في مخدعه الزوجي. فأعلن السيد هانت الغاضب أنه يقدم ١٥٠ دولاراً لمن يرشده إلى مكان صهره.. لكن هذا الصهر اختفى من الوجود.

بعد ثلاثة أشهر، اكتشف مخبأه وكان قبواً تحت منزل آل هانت حيث كانت تزوره زوجته وحماته بالطعام والشراب. قُدِم إلى المحاكمة بتهمة اقتراف الزنا في بورترلاند فاعترف رافضاً أن يحاكمه قانون علماني.. حكم عليه بالسجن سنتين لكنه أُخلي بعد ١٥ شهراً.

أعاد زوجته إلى عصمته بعد أن طلّقها، وأمر أتباعه ببيع كل متاعهم والتوجه معه إلى «جنة عدن» قرب نيوبورت في أوريجون، وخرج من سياتل لاعناً كما رأينا، «متسبباً» بدمار سان فرانسيسكو. وما إن استقر له الأمر في «عدن» التي أنشأها قبالة المحيط الهادىء حتى أرسل إلى أتباعه وتلاميذه في كوفاليس يسألهم المجيء، فترك نصف نساء المدينة بيوتهم وطلبن «عدن». زوج إحداهن تبعها بعد أن اقتنى مسدساً؛ وإذ رأى «النبي» جالساً على صخرة سدّد إليه ورماه بالنار مطلقاً خمس طلقات.. لكن النبي لم يمت.. تبيّن أن التاجر باعه رصاصاً فارغاً.. ومن يستطيع بعد هذا الحادث إقناع النساء أن نبيّهن مخلوق بشري يموت؟! فهنّ لم يتفاجأن بما حصل إذ يعرفن أنه خالدٌ فعلاً. تيقّن جوشوا أنه دخل دائرة الخطر فأخذ زوجته واختفى. جورج ميتشيل أخو إستير ميتشيل، عشيقة جوشوا، تعقبهما حتى وجدهما في أحد المخازن التجارية، فاقترب من «النبي» وسدد فوهة المسدس إلى مؤخرة أذنه وأطلق عليه رصاصةً قتلته فوراً.. صرخت زوجته بالشرطة عندما وصلت المكان: «هذا زوجي جوشوا.. سيقوم من الموت بعد ثلاثة

أيام». بقي يشوع ميتاً طبعاً وقدّم ميتشيل إلى المحاكمة وبرأه القاضي بعد أن استمع إلى التفاصيل كاملةً، وبعد أن أخبره جورج أن هذا الرجل أطاح بعذرية أختيه. في ١٢ تموز/يوليو ١٩٠٦، كان جورج في محطة القطار عندما تقدمت منه استير أخته وقتلته برصاصةٍ في أذنه، كما قتل جوشوا.

انكشف اتفاق مود وأستير على قتل جورج، فسجنت الأولى وانتحرت في السجن، أما الثانية فأدخلت مصحة «عقلية» لثلاث سنوات ثم خرجت لتموت بعد وقت قصير في منزل إحدى صديقاتها.

نهاية إيميه سيمبل ماكفيرسون

ولدت إيميه اليزابيت كيندي في ٩ تشرين الأول/أكتوبر ١٨٩٠، في مزرعة كندية صغيرة بولاية أونتاريو، من أبٍ مؤمنٍ وأمٍ قديرةٍ صارمةٍ مؤيّدة لجيش الخلاص. وعندما بلغت السابعة عشرة، تزوجت من إنجيلي بريطاني شاب يدعى روبرت سيمبل (Robert Semple) برغم رفض أمها واعتراضاتها. كان روبرت يخطط للتبشير بالتعاليم الإنجيلية ووجد في إيميه زوجةً ملائمة. ذهبا معاً إلى بريطانيا لزيارة والديه، لكنه مرض بالحمّى في هونغ كونغ وتوفي في المستشفى البريطاني هناك..

جمعت الإرسالية الصينية هناك ثمن تذكرة السفر، وعادت إيميه إلى منزل ذويها في الولايات المتحدة، بعد انتقالهم إليها من كندا. هناك، تزوجت من تاجر خضار اسمه هارولد ماكفيرسون ورزقت منه بولد لينضم إلى أخته التي ولدته في هونغ كونغ. أضجرها الزواج فبدأت التبشير بالتعاليم الإنجيلية.

في كندا، كانت تجلس على كرسي على الرصيف مغمضة العينين رافعة يديها صوب السماء تصلّي، فينتظرها الناس، ثم تقوم فجأة وتصرخ بهم «اتبعوني» وتدخلهم إلى إحدى القاعات وتقفل الباب وراءها مانعةً أياً كان من الخروج. انضمت إليها والدتها وبدأ الأتباع يتحلّقون حولها ليستمعوا إلى شروحها الحرفية للأناجيل ولتبشيرها بعودة يسوع المسيح الثانية. وفي عام ١٩١٧، قررت التوجه إلى كاليفورنيا، فركبت سيارتها القديمة، بجانبها والدتها وولداها، وقطعت المسافات بغية بلوغ هدفها.

بعد أسبوع من وصولها إلى لوس أنجلوس، تمكنت من استئجار صالة «فيلهارمونيك أوديتوريوم» الذي يتسع لثلاثة آلاف شخص، وصعدت سلم الشهرة سريعاً. بدفعٍ جديد من الثقة بالنفس، جالت في كندا ونيوزيلندة وأوستراليا. وفي سان دييغو، وصلت شهرتها إلى حيث لم تتوقع أبداً. فهذه المدينة مملوءة بالعاطلين عن العمل والعجائز، كما تشير الإحصاءات إلى ارتفاع معدل الانتحار بين شبابها. وأثناء الصلاة التي أقامتها في الحديقة المركزية المكتظة بثلاثين ألف مؤمن، قامت إحدى الكسيحات ومشت بعض الخطوات، فأعلنت الجموع حصول المعجزة وهبّت باتجاه المنبر حيث إيميه تمجدها وتمجد الله، والدموع تغطي الوجنات.

بعد هذا النجاح، قررت إيميه بناء معبدها الخاص في لوس أنجلوس، فرحب أهل المدينة بها وقدموا لها التبرعات والهبات الكريمة. وفي أول كانون الثاني/يناير ١٩٢٣، أزاحت إيميه الستار عن الصليب الكهربائي المنار والدائر على قبّة معبد «أنجلوس» الذي كلف بناؤه وبناء مسكن الأخت إيميه قرابة أكثر من مليون دولار. يتسع هذا المعبد لأكثر من خمسة آلاف مواطن وفي صورة أرغن

ضخم، والتزم بعض المؤمنين البقاء فيه للصلاة المستمّرة. في آخر عظاتها، كانت إيميه تدعو الخاطئين إلى القدوم للتخلص من خطاياهم على يدها، كما كانت تقيم الاستعراضات «الروحية» التي تفوق في إتقانها ما تمّ تنفيذه في السينما.

في العام ١٩٢٥، تعرفت بأحد مذيعي الراديو الذي بدأ يدير محطة إرسال المعبد، ويدعى كنيث أورميستون، فاتخذته عشيقاً لتلتقيه بعد العظات في إحدى غرف فندق أمباسادور. وفي العام التالي، ذهبت الأخت إيميه لزيارة الديار المقدّسة، وكان أورميستون غائباً أيضاً عن لوس أنجلوس طوال فترة سفرها. عادت في أيار/مايو لتستأنف لقاءاتها السرية وأورميستون في كوخٍ في منقطة كارميل استأجره لهذه الغاية. في ١٨ أيار/مايو، اختفت إيميه. فقد ذهبت إلى شاطىء البندقية للنزهة والسباحة. وأعلنت أمها من على درج المعبد «أنها مع يسوع.. فصلّوا لأجلها». وخلال اثنين وثلاثين يوماً، بحث عنها أتباعها في كل مكان، في البر والبحر، وأقدم شخصان على الانتحار، كما جمعت تبرعات لإقامة نصب تذكاري لها بلغت ٣٦ ألف دولار أميركي. وفي ٢٧ أيار/مايو، أعلنت الصحف اختفاء أورميسترون، وتذكر المراسلون أنه غاب أيضاً حين كانت إيميه في الأراضي المقدسة، ليبدأوا بإشاعة أخبارٍ تشكك في هذا الأمر. وفجأة، حضر أورميسترون إلى مركز الشرطة لينفي علمهُ بمكان إيميه ويختفي ثانية. لكن إدارة شرطة كاليفورنيا بدأت تشك في علاقةٍ بين أورميسترون وإيميه، وبحثوا عن أحدهما متأكدين أنهم سيصلون إليهما معاً.

في ٢٣ حزيران/يونيو ١٩٢٦، استيقظ ساكن أحد الأكواخ في أغوا بريتا على طرقٍ على بابه؛ كانت إيميه التي ادّعت أنها

هربت من خاطفيها. فعادت إلى لوس أنجلوس ليستقبلها ٣٠ ألف نصير ويحملونها إلى سيارتها باقات الورد. تناسى الأتباع أو نسوا ما حصل، لكن إيميه حاولت جاهدةً أن تبرهن عن براءتها.. وكان ذلك خطأها الفادح. استمرت تدفع الشرطة إلى توقيف خاطفيها، لكن انعدام الأدلة أعجزها عن ذلك.. وبعد أيام، تسلّل أحدهم إلى كوخ كارميل ما اضطر أوميسترون إلى الإعلان أنه كان هناك برفقة امرأةٍ أخرى غير زوجته.. لكنها لم تكن إيميه أبداً. وأكدت إحدى النساء هذا الادعاء عندما اعترفت أن المرأة المقصودة هي أختها. أعلنت إيميه براءتها بنفسها. لكن الشرطة اكتشفت أن هذه المرأة مطاردة من الدائنين ومعرضة للإفلاس، مما قد يدلّ على انتهاز إيميه هذه الفرصة لرشوتها. وأشرفت المحكمة على إدانتها، لكن أحد أتباعها أتلف ورقةً مكتوب عليها بخط يدها، وجدت في «عش الحب». أتُّهِمَت إيميه بتضليل العدالة فادّعت أن قوى الشرّ تحاربها وأعلنت لتلامذتها أنها تصلب على صليب الشرّ. لكن الأدّلة التي جمعتها الشرطة من موظفات الفنادق، واعتراف المرأة أن إيميه رشتها لتدعي مكوثها في كوخ كارميل، كانت مُحكمة تؤدي إلى سقوطها، لكن القاضية آسا كييس أغلقت القضية (بعد أن قبضت ٣٠ ألف دولار كرشوة).

بعد هذه الحوادث، تضاءلت حماسة الأتباع وقلّ عددهم خصوصاً بعد أن صبغت إيميه شعرها وشدّت جلد وجهها (بحسب ما روت أمها) وبعد أن نقضت تعاليمها حول الزواج (كانت تؤكد أن لا زواج بعد الطلاق ما دام المطلق حياً) وعقدت قرانها على مذيع بدينٍ يُدعى دايف هاتون. لكن هذا اضطر إلى دفع غرامة ٥آلاف دولار لخطيبته السابقة إذ تخلف عن وعده

بالزواج منها.. وعندما علمت بالأمر أغمي عليها فوقعت على الأرض لتصاب بكسور في جمجمتها. سافرت إلى أوروبا للعلاج ولم تعد إلى دايف هاتون ثانيةً.

خلال السنوات الباقية من عمرها، خاضت إيميه في خمسٍ وخمسين دعوى قضائية في محاكم لوس أنجلوس بسبب فواتير غير مسدّدة وعقود مخروقة. وفي السابع والعشرين من أيلول/سبتمبر

انتشرت جمعية الأرض المسطحة في بريطانيا حتى سبعينات القرن العشرين، إذ انطفأت بموت آخر ناشطين فيها صامويل وليليان شيتتون. كان اعتقاد الجمعية بتسطيح الأرض لا بكرويتها سائداً قبل أن يقول العلماء بالعكس. يتمحور مقال أنصار الأرض المسطحة حول الحقيقة التي تؤكد أننا كنا طرنا في الفضاء لو الأرض كروية تدور حول محورها، كما يؤكدون أن الإنجيل يصف الأرض بالمسطحة. ولإثبات وجهة نظرهم، كان هؤلاء متحضرين دائماً لمنازلة العلماء ومناقشتهم في عقر دارهم. خلال القرن التاسع عشر، قام أنصار الأرض المسطحة وأنصار الأرض الكروية بإجراء التجارب والأبحاث.

كان المفروض أن تقنع الصور الملتقطة للأرض من الفضاء أنصار الأرض المسطحة بخطأ أفكارهم، لكنهم أعدّوا إجابتهم وتفسيرهم مسبقاً: كل البرنامج الفضائي خداع ورياء، فقد استؤجر آرثر كلارك لينصّ قصة الهبوط على القمر. وأضافوا أن السوفيات رضوا ترك الأميركيين يعلنون انتصارهم في الفضاء في اجتماع سري جداً، مقابل ترك كوبا للسوفيات دون ضوضاء أو هياج.

ما تزال جمعية الأرض المسطحة موجودة في أميركا حتى اليوم تكافح ضد مؤامرة الكرويين المستمرة.

عام ١٩٤٤، وجدت فاقدة الوعي في إحدى غرف فندقٍ في أوكلاند، ثم توفيت في مساء اليوم نفسه جرّاء جرعة زائدة من المهدئات والمنومات.

كريشنا فينتا

في العام ١٩١١، وتحديداً بعد قرن على ولادة المحترم برنس، ولد داعية آخر في أميركا هو فرانسيس بينكوفيك. حتى قيام الحرب العالمية الثانية، كان قد عمل في غسل الأطباق وبناء السفن وتنظيفها، وسجن مرّات عديدة بسبب السرقة والشيكات دون مؤونة وعدم تموين زوجته بالضروريات وإعالتها وإرسال كتاب تهديد إلى الرئيس روزفيلت.

خلال الحرب الثانية، أسس مذهباً أطلق عليه اسم «ينبوع العالم»، وعندما سُرّح من الجيش غير اسمه إلى كريشنا فينتا وادعى «أنه ولد في أحد سهول نيبال، وزار روما في العام ٦٠٠ بعد الميلاد، لكن أعوان البابا رفضوه وأرسلوه عبر الزمن إلى أميركا في العام ١٩٣٢». استقر المذهب في مقاطعة فينتوارا في كاليفورنيا، وأكد لأتباعه أن الولايات المتحدة ستهتز تحت ضغط الثورة الشيوعية عام ١٩٦٥، وأنه سيستلم الحكم في العام ١٩٧٥.

في التاسع من كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٨، طلب رالف ميلر وبيتر كامينوف، اللذان ارتدا عن المذهب، من كريشنا أن يعترف أن ديانته تهدف إلى الاستعباد الجنسي. وكانت زوجتاهما بين محظيات هذا الداعية. وعندما رفض قذفاه بقنبلةٍ انفجرت وقتلت ١٢ شخصاً وجرحت آخرين. وجدت الشرطة شريطاً سجل عليه المنتقمات أفعال الداعية وإعلانهما أنه إنسان عادي..

كو كلوكس كلان Ku Klux Klan

خلال الفوضى التي حلّت إثر الحرب الأهلية الأميركية عام ١٨٦٥، انقلب النظام الاجتماعي في الولايات الجنوبية المغلوبة رأساً على عقب. فقد أمكن للعبيد التصويت والثأر من أسيادهم السابقين. فقامت عصابات من الزنوج بالسطو على المنازل وقتل السكان واغتصاب النساء تحت عيون القوات الفيدرالية، فاعترض البيض وأكدوا وجود قانونين، واحد للزنوج وآخر للبيض الشرفاء. وفي الفجوة المحفورة بين هذين القانونين وقف الجنرال السابق ناثان بدفورد فوريست وعصابته. وهذا الجنرال كان أمر أثناء الحرب بذبح مئتي جندي أسود أسروا في المعارك مع الشمال عام ١٨٦٤، فطلب من أتباعه أن يلبسوا الأبيض وأن يغطوا حتى الأحصنة بأغطية بيضاء ليعتقد السود «الجهلة» أنهم أشباح الجنود القتلى في المعارك.. اعتبر الرجال أنفسهم فرساناً حقيقيين، فاشتهروا بادىء الأمر لكن شعبيتهم أدت إلى تصدعهم وسقوطهم.

كبر جيش فورست السرّي وعاث قتلاً وتدميراً في مناطق السود، لكنه أمسى دون فائدة عندما تخلّى الشمال عن حقوق الزنوج مقابل العلاقات الاقتصادية مع الجنوب. لكن موت العصابة لم يدم طويلاً. ففي عام ١٩١٥، ظهر الفيلم السينمائي المناهض للتمييز العنصري «ولادة أمّة» لغريفيث، فرد الكولونيل ويليم جوزف سيمونز، المبشر المنهجي، بالدعوة إلى إحياء «النظام النبيل»، فتلقى رسائل تأييد من كل بقاع أميركا وسجلت عصابته «كلو كلوكس كلان» ارتفاعاً رهيباً في عدد المنتسبين إلى صفوفها. هذه المرّة لم تكتفِ بإعادة النظام إلى طبيعته، بل تجاوزت ذلك إلى إذكاء التفريق العنصري.

لم يقصر سيمونز نشاطاته بالزنوج، بل هاجمت «كلو كلوكس كلان» كل منتقديها من اليهود والكاثوليك وغير الأميركيين، وهذا ما زاد في انتشارها وشعبيتها خلال الحرب العالمية الأولى وخلال العقدين التاليين. في هذا الوقت، غني الزعماء وأثروا من تقديمات الأعضاء وأمسوا نافذين في الإدارة الأميركية كما لم يكن أحدٌ من قبل.

خلال عشرينات وثلاثينات هذا القرن، عم الجلد والحرق والاغتصاب والتشويه وحفر (ك ك ك) (Kkk) على أجساد الضحايا، ووقفت السلطة المركزية عاجزةً عن إيقاف المذابح والاعتداءات.

مع ابتداء الحرب العالمية الثانية، تراجعت أعداد المنتسبين إلى العصابة، فسعى الزعماء إلى تعويض خسائرهم المالية بعقد اتفاق مع عصبة الأميركيين النازيين، لكن ذلك كان خطأً فادحاً. أعلن عدم شرعية عصبة النازيين. وعجز زعماء الكلو كلوكس كلان عن محو ارتباطاتهم بها. وفي ١٩٤٤، اتهمت العصابة بالتخلف عن دفع الضرائب لتكون هذه الضربة القاضية.. وفي ٢٣ نيسان/ابريل من العام نفسه، حلّ زعماء العصابة منظمتهم، لكن هذه رفضت أن تموت. فاستمرت بعض المجموعات في سيرتها في الأربعينات والخمسينات حتى اندلعت مشكلة حقوق الإنسان في الستينات. برغم هذا، لم تعد المنظمة هذه محط اهتمام الناس إذ تغيرت أمزجتهم وتحولوا إلى معاداة التمييز العنصري.

ما تزال الكلو كلوس كلان تصارع للبقاء حتى اليوم متذرعة بذرائع مختلفة مثل تنبؤها أن قوى الشيطان بقيادة اليهود والشيوعيين وغير الأميركيين سيشعلون الحرب النووية يليها حربٌ

بين الخير والشر. تحضيراً لهذا اليوم، أقامت المنظمة المحدّثة مخيمات تدريب شبه عسكرية والملاجىء المحصّنة في الولايات الجنوبية.

شارلز مانسون

ولد شارلز مانسون عام ١٩٣٤ في سينسيناتي من أمٍ في الخامسة عشرة من عمرها حملت من صديقها ابن السابعة عشرة. لطالما اعتبر الجيران أمّه خليعةً إذ كانت تحتسي الخمور وتعود إلى بيتها متأخرة في الليل أو تختفي لأيامٍ عديدة كل مرّة. عندما بلغ شارلز الخامسة، كانت هي في السجن بعد قيامها بعملية سطو مسلح، فأرسِل هو إلى ملجأ تابع للرعاية الاجتماعية في أنديانا حيث بقي حتى بلغ الثانية عشرة، فهرب وألقي عليه القبض بتهمة السرقة ليهرب ثانية ويقترف جنح السطو المسلح. أرسل أخيراً إلى إصلاحية للأحداث. لم يكن مانسون قوياً لكن ذو شخصية مسيطرة فأدرك أن أفضل دفاعٍ هو التصرف بقوة وعنف. فاقترف جرائم اغتصاب لواطية عديدةً مهدداً ضحيته بموس حلاقةٍ يضعه على عنقه!

أخلي سبيله في العشرين من عمره فتزوج من فتاة في السابعة عشرة وحملها إلى لوس أنجلوس على متن سيارة مسروقة. رزق بصبي عام ١٩٥٦ لكنه لم يفرح كثيراً إذ اقتيد إلى السجن بتهمة سرقة السيارات ليبقى فيه حتى ١٩٦٧.

بعد خروجه من السجن، توجه إلى سان فرانسيسكو التي تعج بالغجر المؤمنين بقوّة الزهور. هناك، أصبح وجهاً معروفاً قريباً إلى قلوب الناس محبباً، فاستغل الحرية الجنسية ليكدس الحريم إلى جانبه، فكان له ماري برونر التي تعتبر نفسها «زوجته المفضلة» ولين

قروم التي أنقذها من الشارع وقوّى فيها الثقة بالنفس عندما عرّاها وشرح لها كم هي جميلة. وجدت الفتيات شارلز مانسون جذاباً في شخصيته فهو مزيج من شارلي شابلن والمسيح. وكان يحب أن يشير إلى اسمه (مان سون) الذي يعني بالإنكليزية Manson أي ابن الإنسان، معتقداً أنه المسيح..

في تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٦٧، انتقل مانسون وأتباعه (ست عشرة أنثى وأربعة ذكور) إلى مزرعة يملكها رجلٌ شبه أعمى يُدعى جورج سبان (Gerges Spahn) سمح لهم بالبقاء في مزرعته لأسابيع قليلة..

كان هم شارلز مانسون أن يصبح نجماً شعبياً كبوب ديلات مثلاً، فكان يعزف الغيتار ويغني أغنياته، وأخذ يبيع أغنياته للفرق المشهورة، مقابل مبالغ هائلةٍ، لكنّ هذا النجاح لم يُثنه عن إعلان أن الحضارات من نتاج الشيطان، وبقي على قناعته أن مذبحةً نووية على وشك الحصول تؤدي إلى بلوغ السود السلطة.

في هذه الحقبة، بدأت رحلات مانسون التبشيرية تزرع القلق وتُحدث في نفسه نوعاً من جنون العظمة. غنى البيتلز (Melter Skelter) ليهبوه لقباً في زمنٍ أشاروا فيه إلى الشرطة والسود والبرجوازيين بلقب «الخنازير». بدأت «العائلة» تقتني السلاح والسكاكين والسيارات الخاصة بالصحاري مرّة بشيكات دون مؤونة ومرّة أخرى بمالٍ مسروقٍ.

في تموز/يوليو عام ١٩٦٩، دخلت «العائلة» إلى منزل أحد البوذيين المنضم إليها والرافض بيع أملاكه لمصلحة الجماعة وفتشوا في بيته عن المال. وعندما حاول التصدي لهم، ضربه مانسون بالسيف شاطراً أذنه إلى نصفين. وبعد أن أُجبِر على التخلي عن

سيارتيه، طعنوه وتركوه ينزف حتى الموت. بعد هذه الحادثة، بادرت الشرطة إلى إزعاج «العائلة» ومداهمة مقرها في مزرعة سبان بحثاً عن سيارات وبطاقات اعتماد مسروقة. قرر مانسون عندئذٍ توجيه ضربته. ففي الثامن من آب/أغسطس ١٩٦٩، توجه أربعة أفراد من العائلة إلى بيتٍ في هوليود يسكن فيه المخرج رومان بولانسكي بينما كان خارج المدينة في لندن للعمل. وفي المنزل، كانت زوجته شارون تابت تقيم عشاءً لثلاثة ضيوف: عشيقها السابق جاي سيبرينغ، وڤويتك فريكوفسكي وصديقته أبيغايل فولدجر. وكان شارون حاملاً في شهورها الأخيرة. دخل المجرمون إلى المنزل وذبحوا سكانه بالسكاكين، وأطلقوا عليهم النار عندما حاولوا المقاومة والهرب. وكان نصيب شارون أن تطعن في ثدييها. قبل الرحيل، قامت سوزان اتكيز، قائدة العملية، بكتابة «خنزير» بالدم على الباب الخارجي.

قبل رحيلهم، تخلصوا من الثياب الملطخة بالدم وغسلوها بمرشّة العشب في حديقة أحد الجيران الذي لاحظهم وحفظ الرقم في لوحة سيارتهم.. وفي تلك الليلة، مرّ مانسون بموقع الجريمة ليتأكد من موت الجميع، واستمتع مع «عائلته» بالاستماع إلى أخبار الرعب تُذاع في محطات الإذاعة والتلفزة.

كان هدف مانسون إقناع البيض أن السود وراء الجريمة، وأنهم يحضرون للمذبحة حتى يبدأوا بالتحضير للرد. وفي المساء نفسه، انتقى سبعة أعضاء من «العائلة» بيتاً في ضاحية لوس أنجلوس الراقية، لوس فيليز، لكن مانسون أمرهم بإختيار بيتٍ آخر فيه سيارة ثمينة وبقربه حاملةُ يختٍ، خصوصاً عندما رأى الأطفال في البيت الأول. كان ذلك منزل لينوو روزماري لابيانكا. كان الزوجان قد أخلدا للنوم عندما دخل عليهما مانسون بمسدسه يأمرهما بالنهوض

ثم أوثقهما إلى السرير وخرج إلى السيارة ليرسل ثلاثة من أتباعه لقتلهما بينما يبحث هو مع الآخرين على ضحايا جدد. دخلوا إلى غرفة نوم آل لابيانكا وقتلوهما طعناً بالسكاكين وكتبوا بالدم على الجدران «الموت للخنازير» و«قوموا»، واغتسلوا وأطعموا الكلاب التي شهدت الجريمة دون أن تنبح، ثم عادوا إلى المزرعة حيث كان مانسون ينتظرهم.

أدت موجة الجرائم إلى ما أراد مانسون، وتصاعدت مبيعات الأسلحة وأجهزة الإنذار في لوس أنجلوس. وبعد ستة أيام، وجدت الشرطة السيارة المستخدمة في الاعتدائين دون أن تجد أثراً للمجرمين، فقرر المفتشون مداهمة الأحياء الغجرية بحثاً عن سلاح ومخدرات وسيارت مسروقة، فتم اعتقال مانسون وأربعة وعشرين من أتباعه لكن أخلي سبيلهم بعد ثلاثة أيام لانتفاء الأدّلة.

في ٢٦ آب/أغسطس، اختفى أحد المستخدمين البيض في مزرعة سبان ولم تعثر الشرطة على جثته، فقد قتلته «العائلة» لأنّه تزوّج من زنجية وكان يعرف الكثير. وفي ١٢ أيلول/سبتمبر ١٩٦٩، انتقلت «العائلة» إلى سهل الموت فأثارت انتباه الشرطة خصوصاً عندما قامت بإحراق أحد الجرارات الزراعية. ولم يبزغ التاسع من تشرين الأول/أكتوبر حتى كانت الشرطة قد حاصرت المكان واعتقلت كل من فيه حتى الفتيات اللواتي حاولن التأثير على الرجال عن طريق التعرّي والتبول أمامهم. في المحكمة، انهارت سوزان أتكينز التي اشتركت أو قادت معظم الحملات الإجرامية، وخانت «العائلة» بأن كشفت أسرارها للسجينات اللواتي أوصلن كل المعلومات للمحققين.

أثناء المحاكمات، بقي مانسون على إصراره أنه بريء وأن

المجتمع مذنب، وأمسى بطلاً بنظر الهيبيين الذين وجدوا فيه معارضاً فذاً.. فلو أفرج عنه لتبعه مريدون أكثر من أي مسيح آخر. استمرت الجرائم بعد التوقيفات، وقتل المدعي العام رونالد هيوغز ووجدت جثته المتحللة في الصحراء بعد ثمانية أيام من اختفائه. في ٣٠ آذار/مارس عام ١٩٧٠، حُكِمَ على مانسون وسوزان أتكينز وليسلي ڤان هاوت وباتريسيا كرينونيكل بالإعدام.. مما يعني السجن مدى الحياة دون قبول طلبات الإخلاء المشروط.. وفي عام ١٩٩٢، تقدم مانسون بطلب جديد لإخلاء سبيله بشروط.. ورُفِضَ أيضاً طلبه.

جرائم ماتاموروس

قد يصعب تخيل أن يكون ثمة من هو أخطر وأقل إنسانية من شارلز برونسون، لكن تفاصيل جرائم ماتاماروس وضعت أدولفو كونستانزو في منصب أكثر المجرمين ساديةً.

يروي أتباعه أن أدولفو كونستانزو أكدّ مراراً تلمذته على أمّه الكوبية الأصل، في ميامي، التي كانت راهبةً في مذهب «الدم والظلام» الذي أسسه بالومايومبي، ويتذكر دائماً أن أولى الأضاحي كانت دجاجة.

ديانة بالومايومبي هي أخت ديانة سانتيريا السوداء، نشأتا على الشاطىء الغربي لأفريقيا وانتقلتا من طريق الزنوج إلى المستوطنات الإسبانية في كوبا. وعندما أُجبر هؤلاء السود على التحول إلى المسيحية، احتفظوا بكل مبادىء ديانتهم الأساسية وربطوا آلهتهم بصور القديسين في الأيقونات الكاثوليكية. استمرت سانتيريا كمزيج من المسيحية الحديثة والديانة الأفريقية القديمة الشبيهة بالڤودو، تعمل للخير وللشرّ وتشابه ما يعرف بالسحر الأبيض.

طقس بالومايومبي يتمحور حول وعاءٍ مليء بالدم ورأس نعجةٍ متحللٍ وسلحفاة مشوية وجمجمة بشرية لشخصٍ عنيفٍ قتل إثر حادثٍ مفاجىء. روح الميت المختارة تطيع كهنة بالومايومبي إن بقيت على إتصالٍ مباشر بدمٍ طازج، وتستطيع أن تلعن الأعداء وتتنبأ بالمستقبل وتؤمن وقايةً سحرية وجسدية. يهدف كهنة بالومايومبي إلى اكتساب النفوذ في الحياة إذ يكذّبون الأقاويل عن حياةٍ بعد الموت، لهذا يعلن الكاهن الجديدُ موت روحه وإخلاصه لإله التدمير كاديبيمبيبي «الروح الآكلة». في نظر هذه الديانة، ليس المسيحيون وغيرهم من غير المؤمنين إلا حيوانات يجب استغلالها دون رحمة. أما الجمجمة البشرية، فكانوا يحصلون عليها من سرقةِ القبور، لكن أدولفو كونستانزو أخبر أتباعه أن عرّابه ـ يطلق هذا اللقب على أرفع الكهنة منصباً في المذهب ـ كان يطارد أرواح الأحياء في هايتي وهو بصدد السير على خطاه.

انتقل إلى مكسيكو في ١٩٨٢، واستقر فيها كمنجّم عرّاف واشتهر بدقّة تنبؤاته، كما اعتمده تجار المخدرات في المدينة ليقرروا متى يُرسلون حمولاتهم عبر الحدود الأميركية، لكن التحقيقات أظهرت أن معلوماته «الربانية» كان ينقلها إليه بعض المسؤولين الفاسدين في إدارة مكافحة المخدرات المكسيكية الذين كانوا من تلاميذه.

اجتمع حوله التلاميذ وأمسوا يجتمعون سرّاً في غرفةٍ مخفية داخل شقته الفاخرة، نصب فيها «مذبحاً» أو ما يطلقون عليه اسم نغانغا (Nganga)، يمارسون فيها طقوسهم ليبعدوا عنهم شرّ الشرطة.

بعد أن هبطت عليه الأموال من تجار المخدرات الجهلة، اتصل بأحدهم، غيليرمو كالزادا، وعرض عليه أن ينتقل إلى منزله فيصبح

عرّافه الخاص ويحميه وتجارته دائماً مقابل مبالغ هائلةٍ، فوافق كالزادا الذي كان جرّب عرافة كونستانزو واقتنع فيها.. وبعد أيام، طالبه كونستانزا بجزء من الربح الوفير الذي يصيبه والذي لم يكن لولا سحره هو، فرفض، كما أغضب الساحر العرّاف، لكنه عاد واتصل بكالزادا طالباً المغفرة عارضاً أن يصبّ سحره على العائلة كلها لحمايتها من الشرور. وفي ٣٠ نيسان/إبريل عام ١٩٨٧، وصل كالزادا وعائلته وشريكه جوزي رولون وأمينة سرّة وخادمته ومرافقه للقاء كونستانزو في أحد المعامل المهجورة. بعد أيام، وجدت جثثهم المشوّهة والمقطوعة الأصابع والآذان والأعضاء التناسلية في أحد الأنهار شمال مدينة مكسيكو، وكانت كلها دون رؤوس وقلوب.

نقل كونستانزو الأعضاء المبتورة إلى النغانغا من أجل اكتساب القوة الروحيّة واستخدام الأصابع للترحال الروحي والآذان للسمع والقلوب والأعضاء التناسلية لتكديس القوة، ومن أجل استعباد هذه الأرواح الملعونة للمساعدة في التوسع إلى ما بعد الحدود بين تيكساس وميكسيوكو، إلى بلدة ماتاموروس؛ فقد أدرك كونستانزو أن مقره في مدينة مكسيكو بعيدٌ جداً من مركز تجارة المخدرات أي الولايات المتحدة.

أمر تلميذه، عميل المخدرات الفيدرالي، سالڤادور غارسيا أن يستكشف الوضع في ماتاموروس الحدودية، وعلم أن عائلة دانييل هيرنانديز الممسكة بزمام التجارة هناك متصدعة بعد موت زعيمها في اشتباك مع عصابة منافسة. فانتقل كونستانزو إلى ماتاموروس ليبدأ بناء أمبرطوريته الخاصة، فتمكن بالخداع والمكر من السيطرة على الأخوة هيرناديز وأقنعهم بالانضمام إلى اجتماعاته حيث تجري

طقوس الأضاحي الدموية، فانتقلت تجارتهم إلى يد العراب أدولفو، وبدأت الأموال تتدفّق. ثم أقنعهم العراب بسرقة المخدرات بدلاً من شرائها وشرع يستفيد من إرشادات تلامذته في العصابات الأخرى ليضع يده على قوافلها المحملة بالماريجوانا بعد أن قتل صاحبها الأصلي.

صُدِمَ الأخوة هيرنانديز لوحشية العراب أدولفو لكنهم لم يجرأوا على معارضته. وبعد أن اشتركوا في هذه الجريمة استحقوا تقبل أسرار بالومايومبي.. وبعد وقتٍ قصير، اقتنعوا بضرورة تقديم الأضاحي البشرية كي تمرّ قوافلهم بسلام، وكي تتمّ صفقاتهم كما يريدون.

في هذه الفترة الممتدة بين أيار/مايو ١٩٨٨ وآذار/مارس ١٩٨٩، قتل كونستانزو وأتباعه ما لا يقل عن ثلاثة عشر شخصاً بعد تعذيبهم وألقوهم في خراج بلدة ماتاموروس. كان معظم القتلى من منافسيه بائعي المخدرات ومن أعضاء جماعته المرتدّين، إلى جانب بعض الغرباء الأبرياء الذين خطفوا عن الطرق وقتلوا دون أن يُسألوا عن أسمائهم. ارتعب إيليو هيرنانديز ذات يوم عندما رأى وجه أحد الشبان الذين قتلهم وكان أحد أقرب أقربائه.

كل ضحايا هذه الجرائم كانوا ذكوراً.. يُلتقطون من منازلهم أو عن الطرقات فيضربون ويروعون قبل أخذهم إلى النغانغا حيث تُقطع أصابع أيديهم وأقدامهم، ويسلخ أدولفو بعض جلدهم قبل أن يلوط بهم.. أخيراً تُقطع رؤوسهم وتُخرجُ قلوبهم.

كان كونستانزو يحرص على أن تَصرخ الضحية أثناء قتلها لتروّع الروح وتخاف عند خروجها من الجسد فيسهل عندئذٍ تطويعها. ففي إحدى المرات، عصي المقتول عن الصراخ حتى حين

سلخ جلد صدره ومات صامتاً.. غضب أدولفو وقرر أن يقتل أميركياً ناعماً يصرخ ولا يسكت. فخطف أتباعه أحد التلامذة الأميركيين القادم إلى البلدة للنزهة، وسرّ أدولفو كثيراً عندما ضجت الغرفة بصراخ وعويل هذا الشاب.

في هذه المرّة، تجاوزت سادية كونستانزو حدودها، إذ كان المختفي ابن ضابط الجمارك. فبدأت شرطة تكساس ونيو مكسيكو بحثاً دقيقاً عن الفتى.

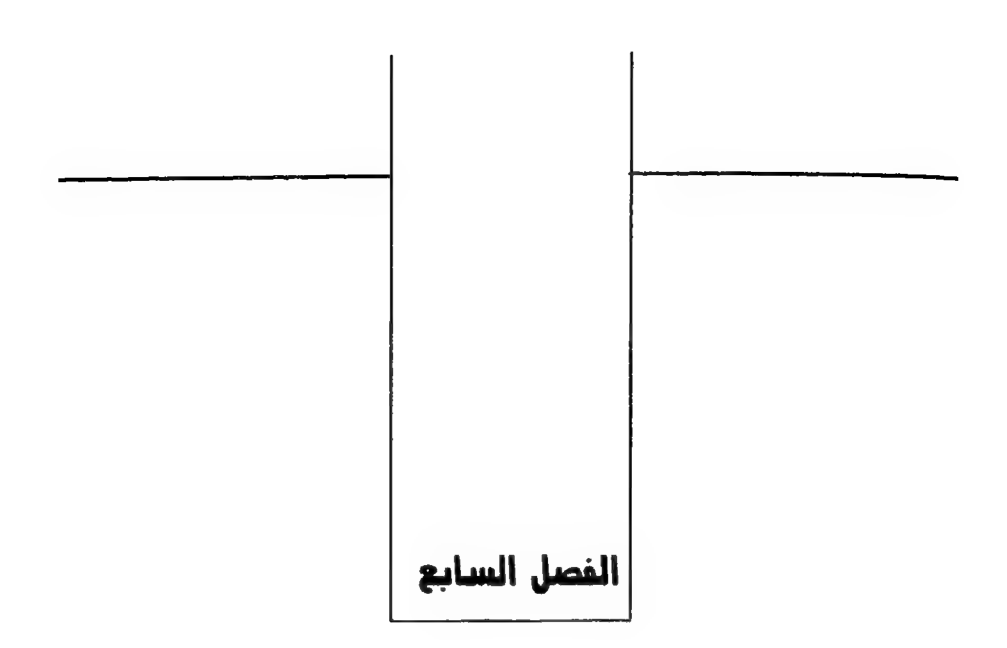
بعد أيام قليلة، لحقت الشرطة بأحد آل هيرنانديز لارتكابه مخالفة مرور، وعندما وصلوا مزرعته انتظروا رحيله ليفتشوها ويجدوا أدلة دامغة على تخزين المخدرات.. فأوقفوه. وبعد قليل من التعذيب، بدأ هذا يعترف بما هو أفظع من تجارة المخدرات، ودلّ المحققين على مكان مزرعة أدولفو معتقداً أنهم لن يتمكنوا من هزيمة سحره.

ألقت الشرطة القبض على أعضاء مذهب أدولفو كونستانزو لكنها فشلت في إيجاده وإيجاد تلامذته المقرّبين، أما العراب وحاشيته فانتقلوا إلى منتجع فخم جنوب العاصمة دون أن يهتموا بما جرى، فقد كانت أموالهم كثيرة واقتنعوا أنهم سيعودون إلى الحدود عندما يَهدأ الوضع.

أديان سانتاريا وبالو مايومبي في الجالية الكوبية في ميامي. وقد تحوّل نهر ميامي إلى «نهر الدجاج» بعد أن عمل فيه جيش من أعضاء المجموعات الصحية لتنظيفه من مئتي دجاجة مقطوعة الرأس واثنتين وعشرين أوزّة دون رؤوس، ومن مئات القطط والكلاب والأفاعي والسلاحف والحمام والسحالي والبطارق.

كشفت الشرطة مخبأهم الجديد وبدأت مداهمته في الخامس من أيار/مايو.. جن جنون أدولفو وبدأ يرمي الأموال في الموقدة ويحرقها بينما قام اثنان من مساعديه بصلي الجنود طلقات غزيرة. وعندما شارفت مؤنتهما على النفاد أوقفهما أدولفو وأمسك بعشيقه مارتين رودريغز وأمرهما بإطلاق النار عليهما ففعلا بعد تردُّدٍ وبعد أن هددهما العرّاب أن يلعنهما ويعذبهما في الجحيم.. وبعد أن طمأنهما أنه سيعود.

اعتقلت الشرطة الآخرين الأحياء واعترفوا بجرائم ماتاموروس المروّعة بينها جرائم قتل ستة عشر شاباً لم يصلوا السادسة عشرة، وتوصلت إلى «نغانغا» فأحرقته وذرت رماده في المجاري للتخلص منه أبدياً.



الفصل السابع

المجرمون المجانين

٧

مجرم يوركشاير

في القرن العشرين، ظهر القتل المتسلسل. يختار هذا القاتل ضحاياه بالصدفة ويكون الدافع جنسياً إجمالاً. المهم في الأمر أن القاتل يدمن القتل والإجرام، وبعض المجرمين يدعي أن صوت الله يسيّره.

في النصف الثاني من سبعينات القرن العشرين، زرع مجرم يوركشاير الرعب في صفوف المومسات وبائعات الهوى في شمال إنكلترا.

بدأ عهد الرعب في منطقة ليدز (Leeds) في برد تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٩٧٥ عندما اكتشف بائع الحليب جثة امرأة في أحد أحواض الاستحمام. سروالها عند ركبتيها وحمالة ثدييها حول عنقها، والدم يغطي جسدها نتيجة أربع عشرة طعنة وجدت آثارها في جسدها الفتي. عرفت الشرطة هويتها. فكانت مومساً تدعى ويلما ماكان (wilma Maccan)، تعمل في خمارة لتعيل أطفالها الأربعة.

بعد ثلاثة أشهر، في ٢٠ كانون الثاني/يناير ١٩٧٦، وُجِدَت جثة امرأة أخرى تدعى إميلي جاكسون (Emilie Jackson) نصف عارية ومطعونة في بطنها وصدرها. في كلتا الحالتين، أظهر الطب الجنائي أن الضحيتين تعرضتا لضربةٍ عنيفةٍ من الخلف أفقدتهما الوعي قبل قتلهما. كانت المرأة زوجة مقاولٍ محترمٍ تبلغ الثانية والأربعين من العمر، لهذا أدركت الشرطة أن المجرم لا ينتقي ضحاياه، بل يقتل من يصادفه. لكن التحقيق المتشعب أظهر أن إميلي المغدورة كانت تزيد من مدخولها عبر احترافها الدعارة السرّية، وظهر في الفحص الطبي إقدامها على ممارسة الجنس قبل مقتلها بقليل دون أن يكون ذلك مع القاتل بالضرورة. دلّ هذا الأمر على أن المجرم مهووس سادي يتلذذ بقتل بائعات الهوى.

دب الرعب في سكان ليدز وخصوصاً في ناحية شابيلتاون (Chapeltown) حيث الملاهي والخمارات وبيوت الدعارة، وحيث وجدت جثة إيميلي. وتوقف القاتل عن هوايته حتى الخامس من شباط/فبراير عام ١٩٧٧، حين خرجت البغي أيرين ريشاردسون (Irene Richardson) من غرفتها في شابيلتاون بحثاً عن الزبائن، فالتقت رجلاً يحمل مطرقةً وسكيناً، ضربها بالمطرقة على رأسها وطعنها في بطنها بعد أن مزّق أثوابها. دلت ملامح وتفاصيل الجروح التي أحدثها أنه أراد إخراج أمعائها من بطنها مدفوعاً بهوسٍ ما.

تتابعت الجرائم خلال ثلاثة أعوام ونصف ليرتفع عدد الضحايا إلى ثلاث عشرة، كلّهن مومسات إلا اثنتين كانتا عائدتين من عملهما ليلاً، إحداهما عاملةٌ إجتماعية. ومن بين هذه الضحايا، نجت بعضهن بأعجوبة دون أن يتجنبن الطعنات. كما كانت

الطريقة واحدةً إلا في حالة المتطوعة الاجتماعية التي ضربت على رأسها وخنقت بحبل رفيع. في بعض الحالات، كانت أمعاء المقتولات خارج بطونهن بشكل تقشعر له الأبدان.

مورين لونغ ضحية نجت من الموت وروت أنها في ٢٧ تموز/ يوليو ١٩٧٧ كانت تتمشى في وسط برادفورد عندما عرض عليها أحدهم إيصالها إلى المنزل. وعندما خرجت من السيارة أمام باب بيتها، تلقت ضربةً قويةً على الرأس وبدأ الرجل يطعنها في صدرها. قبل أن يتأكد من موتها اضطر إلى الرحيل إذ تنبّه لنورٍ أنير في عربةِ أحد الغجر قرب المكان. بعد أن شفيت إثر جراحة دماغية، وصفت المجرم بأنه شاب أشقر الشعر طويله، لكن هذا الوصف لم يكن

في العام ١٩٨٥، أدى انتحار ليونارد لايك وهرب شريكه شاير نغ إلى مداهمة الشرطة لمنزل في مقاطعة كالافيراس الكاليفورنية وإلى اكتشافها مخبأً لأشرطة الفيديو التي تظهر اغتصاب وتعذيب أكثر من ثلاثين امرأة. المحكوم السابق جيرالد غاليغو وعشيقته شالين وليمز اعتادا خطف المراهقات وقتلهن بعد إجبارهن على المشاركة في اجتماعات عربدة ومجون وفي ممارسات سحاقية، كل ذلك بحثاً عن «العبد الجنسي الكامل».

في شيكاغو، اختطف روبين جيشت وأتباعه الأربعة خمس عشرة امرأة أخضعوعهن لممارسات داعرة ولتعذيب قاسٍ ولطقوس غريبة بينها طقس التهام الثدي خلال الاحتفالات الشيطانية. ويحكى عن اتصال جزار نيويورك دافيد بيركوفيتز بإحدى المجموعات الشيطانية التي دفعته إلى قتل الناس في سياراتهم.

صعب أن نتخيل كيف يمكن أن يتسب فساد الإنسان بأكثر من هذا.

دقيقاً أبداً، خطأها ذلك أجّل القبض على مجرم يوركشاير لأشهر عديدة.

في الأول من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٧، قتلت مومس تدعى جاين جوردان في مانشستر، ووجدت الشرطة جثتها بعد ٩ أيام مطعونة أربعاً وعشرين طعنة، واكتشفت ورقةً نقديةً جديدةً بقيمة خمسة جنيهات في حقيبتها.. كانت هذه مفتاحاً مهماً، استدلت به الشرطة إلى الشركات والمؤسسات التي دفعت رواتب أُجَرَائها بأوراق من فئة خمسة جنيهات. وبين الأجراء الذين استجوبوا سائق شاحنةٍ يدعى بيتر ساتكليف (Peter Satcliffe) يسكن بيتاً في برافورد. لكن هذا كان ذا شعرٍ أسود مجعد ولحية كثة، كما شهدت زوجته صونيا أنه لم يغادر المنزل في ذلك اليوم.. اعتذرت الشرطة، وتابع مجرم يوركشاير زرع الرعب لثلاثة أشهر إضافية.

استمرت الجرائم فأنتجت أربع مقتولات عام ١٩٧٧ وثلاثاً عام ١٩٧٨ وثلاثاً أخريات عام ١٩٧٩. فأطلقت الشرطة أوسع حملةٍ تفتيشية يمكن إطلاقها في شمال إنكلترا واستجوبت آلاف السكان، دون أن تصل إلى هدفها في كشف المجرم.

آخر الضحايا كانت صبية في العشرين من عمرها، تدعى جاكلين هيل، كانت عائدة إلى منزلها من الجامعة بعد أن أكملت محاضراتها المتأخرة يوم ١٧ تشرين الثاني ١٩٨٠، لكنها لم تصل بيتها، لتكتشف الشرطة جثتها مضروبةً في الرأس مطعونة في الصدر والبطن والعين، قال ساتكليف لاحقاً في التحقيق إنها كانت تشزره طوال الوقت فغرس النصل في عينيها.

أما محاولته الأخيرة فكانت يوم الثاني من كانون الثاني/يناير

عام ١٩٨١ عندما تلقّفَ زنجيةً اسمها أوليف رايفرز أنهت لتوّها جولةً مع أحد الزبائن في وسط شيفيلد سألها عن ثمنها، فأجابته «عشرة جنيهات بدل الجنس في السيارة»، وصعدت لتجلس بجانبه. وعندما طلب منها الركوب في الخلف رفضت. انتقل من مكانها ليستقر فوقها لكنه عجز عن الحصول على الانتصاب فانتحى جانباً.. في هذه اللحظات، وصلت سيارةٌ لشرطة لتتوقف أمامهم. فوجيء ساتكليف وسأل الزنجية أن تقول إنها صديقته. شك الشرطيان في أمر السيارة وخابرا المركز ليسألاه عن رقمها. في هذا الوقت، طلب ساتكليف أن يسمحا له بالتبوّل، وذهب ليقف قرب إحدى خزّانات الزيت وعاد إلى السيارة. أتى الجواب من مركز الشرطة يؤكد زيف الرقم، ونقل ساتكليف إلى المخفر. هناك، سُمح له ثانية بالتبول.. وعندما فتّش المحققون جيوبه، وجدوا حبلاً مجدولاً وبدأوا يشكون في أمره، وفي أنهم وضعوا أيديهم على القاتل المرعب.

نفى ساتكليف أول الأمر كل التهم الموجّهة إليه وساق الأكاذيب حول لوحة السيارة المزورة والحبل الذي يحمله ومكوثه في السيارة مع مومس. وعندما علم المحقق روبرت رينغ أنه ترك السيارة للتبول أسرع إلى ذلك المكان ليجد مطرقةً وسكيناً بين النفايات. ثم عاد إلى مركز الشرطة ودخل دورة المياه ليجد هناك سكيناً آخر. وعندما وجهه بهذه الأدلة، انهار واعترف بارتكاب الجرائم.

بدأت القصة عندما كانت المومسات والأضواء تبهر ذلك الصبي الخجول والمكتئب الذي ولد في الثاني من حزيران/يونيو ١٩٤٦، كبير أخوته الخمسة. لم يصب نجاحاً في المدرسة فتركها

في الخامسة عشرة، فأخذ يتنقل بين المهن. في عام ١٩٦٧، التقى صونيا سزوروما التشيكية وتزوجها بعد سبع سنوات، لكن حياتهما تحولت جحيماً فخانته هي مع بائع المثلجات وبادلها هو الشعور نفسه بالخروج مع إحدى المومسات. لم يستطع إرضاءها فخرجت حاملةً ورقة عشرة جنيهات ولم تعد له خمسةً منها. وعندما صادفها لاحقاً طالبها بما له فسخرت منه وأغاظته. فابتدأ يكره المومسات ويحقد عليهن، وكانت أولى اعتداءاته عليهن إذ ضرب رأس واحدةٍ بكيس مملوء بالحصى.

كرّت سبحة اعتداءاته على بائعات الهوى، وتحوّلت إلى القتل العنيف عندما وصل وزوجته إلى طريق مسدود، خصوصاً عندما أصابها الانهيار العصبي وانفصام الشخصية واستمرت في تعييره بعجزه الجنسي. هذا ما أخبره لأوليڤيا رايڤرز قبل أن يحاول تجريب حظه معها قبل اعتقاله.

وكانت أولى الجرائم عام ١٩٧٥، وخرّت أولى الضحايا ويلما ماكان.. بخلاف غيره من المجرمين الجنسيين، لم يعترف ساتكليف بالانتشاء أثناء طعن النساء، لكن كلّ عارفٍ بعلم النفس الجريمي متأكّدٌ أن ذلك يحصل، وأنّ الضحايا اللواتي لم يمتن من الطعن يعود الفضل في بقائهن أحياء إلى حصول النشوة مبكراً. فبهذا الطعن، اكتشف ساتكليف طريقة للوصول إلى نشوة جنسيّة بالغة لم يحسّ بها من قبل ولم يصلها عن طريق الجماع الطبيعي. واعترف أنه بكى في سيارته بعد أن أنهى إحدى جرائمه، وأنه حزن كثيراً عندما علم أن جاين ماكدونالد لم تكن مومساً. لكن تناسى هذا الحزن، وما عاد يبالي بمن يقتل، قائلاً: «لقد قادني الشيطان إلى ذلك».

وفي الخامس من أيار/مايو عام ١٩٨١، بدأت محاكمة ساتكليف، فوقف في المحكمة يدافع عن نفسه طالباً البراءة مردداً رواية «مهمته» الالهية، لكن أحد الحراس سمعه يخبر زوجته أنه سيوهم القاضي بجنونه فمضى عشرة أعوام في المصح العقلي. في ٢٢ أيار/مايو نطق القاضي حكمه، مديناً ساتكليف وآمراً بسجنه مدى الحياة شرط عدم خروجه قبل ٣٠ سنة.

دينيس نيلسن

في مساء الثامن من شباط/فبراير ١٩٨٣، طلب سكان إحدى العمارات في ناحية موسويل هيل الراقية شمال لندن عاملاً لتسليك المجاري بعد أن يتعذّر عليهم تصريف المياه. توجّه المهندس مايكل كاتران لاستكشاف الوضع، وقاده أحد ساكني العمارة إلى الفتحة المؤدية إلى نظام التصريف الرئيسي.. وما إن فتحها حتى كاد يختنق جراء انبعاث رائحةٍ كريهةٍ هي رائحة اللحم الإنساني المتفسّخ. وعندما نزل إلى مجرى الصرف وجد كاتران أن ما يسدّه هو عبارة عن قطع من اللحمِ البشري المهترىء والمبيض، فخابر رئيسه الذي لم يصدقه مؤجلاً التفتيش إلى اليوم التالي.

في الصباح، كان مجرى الصرف المائي نظيفاً، وأخبرتهم سيدة تسكن العمارة أنها سمعت خطى تصعد إلى الطابق الأعلى وتهبط كل الليل.. في الطابق الأخير، كان يسكن الموظف المدني دنيس نيلسن ذو السابعة والثلاثين ربيعاً.

انتظر كبير مفتشي الشرطة، بيتر جاي، وصول دينيس من مكتبه ليسأله عن مشكلة التصريف، فدعاه إلى منزله العابق برائحة الجثث والموت. أخبر جاي نيلسن عن البقايا الموجودة في المجاري

وسأله عن بقية الجثة، فأشار نيلسن إلى خزانة الثياب قائلاً: «هي هناك، في كيسين من البلاستيك».

وفي الطريق إلى دائرة البوليس اعترف نيلسن أنه قد قتل خمسة عشر شخصاً في جوابه على سؤال جاي إن كانت البقايا لرجل واحد أو أكثر..

وفي الدائرة، أخبر نيلسن المحققين أنه قتل ثلاثة رجال في هذا المنزل ـ انتقل إليه خريف ١٩٨١ ـ وقتل اثني عشر آخرين في منزله السابق في كريكلوود.

كان دينيس اسكوتلندياً، ولد في فرايزر برغ في ٢٣ تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٤٥. فقد تزوجت أمه بيت يوايت من جندي نروجي اسمه أولاڤ نيلسن عام ١٩٤٢، لكن الزواج لم يدم فانفصلا بعد سبع سنوات. وفي عام ١٩٥٤، تزّوجت ثانيةً ورَحَل دينيس إلى بيت جدّته ليتقرّب إلى جدّه واعتبره بمثابة أبيه. وعندما بلغ السابعة مات جدّه لتكون الصدمة الأولى في حياته.

في العام ١٩٦١، انضم نيلسون إلى الجيش ثم انتقل إلى سلك الشرطة عام ١٩٧٢، ثم انتقل إلى عملٍ آخر، لكنه بقي مستوحداً لا يقيم العلاقات ولا يختلط بالناس.

في تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٧٥، انتقل إلى بيته في كريكلوود ليسكن مع شاب يصغره بعشر سنوات يدعى دايڤيد غاليشان، أفاد فيما بعد أن أي علاقات شاذة لم تقم بينهما. وعندما قرر دايڤيد الانتقال إلى منطقة أخرى في أيار/مايو ١٩٧٧، غضب نيلسن إذ شعر أنه منبوذٌ. ويبدو أن افتراقه عن دايڤيد غاليشان أشعل نار العنف الإجرامي في نفسه وأدى إلى موت ثلاث عشرة ضحيّة.

بدأ القتل في كانون الأول/ديسمبر عام ١٩٧٨، ليلة الميلاد، إذ التقط نيلسن صبياً إيرلندياً ودعاه إلى المنزل، لكن هذا رفض قضاء السهرة مع نيلسن، فقتله ليوفّر على نفسه عناء الوحدة والفرقة، وخبأه في أرضية البيت حتى آب ثم أحرقه مع كميات من المطاط لإخفاء الرائحة الكريهة. وفي تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٩، حاول نيلسن خنق أحدهم لكن هذا تمكن من الفرار وتوجه بالشكوى إلى الشرطة، فادعى عليه نيلسن بمحاولة سلبه، ثم غفر له فعلته.

كانت الضحية التالية شاباً كندياً في الثالثة والعشرين يدعى كينيث أوكندون رافق نيلسن إلى منزله ولم يستجب لرغباته الشاذة بل جلس يشاهد التلفاز ويستمع إلى الموسيقى. غضب منه نيلسن إذ تركه وحيداً فخنقه بربطة عنقه. كان أوكندون ثملاً فما دافع عن نفسه؛ وبعد أن قتله، جلس نيلسن لساعات يستمع إلى الموسيقى الهادئة. في اليوم التالي، وجد نيلسن كثيراً من الأموال في جعبة الكندي لكنه مزّقها ورماها إذ أن تربيته الأسكوتلاندية تمنعه من السرقة!

الضحية الثالثة في أيار/مايو ١٩٨٠، كانت مارتن دافي (١٦ عاماً)، والرابعة بيلي ساذرلاند (٢٦ عاماً).. وكرّت السبحة ليتم التعرف على معظم هذه الضحايا. الغريب أن دافع القتل لم يكن جنسياً أبداً إذ أن معظم القتلى استجابوا لرغبات القاتل المثلية وتمتعوا برفقته. لكن بعض اعترافات نيلسن تحمل تلميحاً إلى أن قوة شيطانية كانت تسيطر عليه فلا يقدر على رفض إرادتها.

في تشرين الثاني/أكتوبر عام ١٩٨١، انتقل دينيس نيلسن إلى منزله الجديد في موسويل هيل، وأخذ يقتل ضيوفه، لكنه كان أحياناً يغيّر رأيه ويطلق ضحاياه قبل قتلهم. فأحد الشاذين عاد في

اليوم التالي إلى عمله ليخبر أصحابه بوجود آثار وندوب على عنقه وكأن أحداً أراد خنقه... فقد أمضى الليلة في فراش نيلسن.

أما آخر ضحيتين، فشرّحهما القاتل ثم غلاهما قبل رميهما في الحمام، ما تسبب في انسداد المجاري وانكشاف أمره.

بدأت محاكمة نيلسن في ٢٤ تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٨٣ في المحكمة نفسها حيث حوكم بيتر ساتلكيف قبل عامين. وبرغم جهود «الدفاع» لتخفيف الحكم بمبرر القتل غير المتعمد، حكم القاضي على نيلسن بالسجن مدى الحياة.. دون عودة.

ريشارد راميرز

في العام ١٩٨٥، ارتفعت مبيعات الأسلحة الفردية في لوس أنجلوس، إذ أمسى الكل ينام وبجانبه مسدس مجهز بسبب تصاعد الهجمات على الناس في بيوتها..

كان القاتل الرهيب يدخل البيت ليلاً، فيقتل الزوج برصاصة في رأسه ويغتصب الزوجة ويضربها تحت تهديد قتل أولادها، ثم يقتلها. ثم يغتصب الأولاد الذكور ويقتلهم في بعض الأحيان.. ويخرج دون أن يسرق شيئاً. بعض الناجين يصفون السفاح بأنه إسباني طويل ضعيف ذو شعر أسود مدهن وأسنان متسوّسة، يجبرهم على إعلان حبهم للشيطان. يبدو أن هذه الجرائم متمحورة حول شهوة الترويع لا شهوة الاغتصاب والقتل..

وكان لهذا القاتل طرقه الخاصة في اختيار الضحايا إذ فضل الخروج من دائرة عرقه ليُغير على البيض وخصوصاً الآسيويين منهم. كما بدا تفضيله الدخول إلى البيوت الصفراء.

تصاعدت هجمات هذا المجرم في ربيع وصيف عام ١٩٨٥

لتصل إلى عشرين هجوماً ليختلط فيها القتل بالاغتصاب، ما دفع بالصحافة إلى تفصيل الجرائم المقززة مطلقةً على المجرم الألقاب المخيفة مثل «غازي السهل» و«صياد الليل».

أمضى سكان كاليفورنيا ذاك الصيف دون أن يفتحوا شبابيكهم.. أحد رجال الشرطة أخبر مراسلاً صحفياً أن اللصوص «يريدون رأس هذا المجرم إذ هو يؤثر على عملهم ويقطع رزقهم». حتى الشرطة نفسها سيّرت دوريات مكثفة وأوقفت كل رجلٍ قد يشابه أوصاف المجرم.. حتى أن رجلاً بريئاً أوقف خمس مرّات.. لكن جهودها ذهبت أدراج الرياح.

ساءت أحوال القاتل أيضاً إذ حصلت جريمةٌ، تدخل في هذه السلسلة، في سان فرانسيسكو، فبدا أن تيقظ أهل لوس أنجلوس وشرطتها عقّدت عمله. هذا الانتقال سمح للشرطة بالتفتيش في الفنادق عن الرجل المطلوب، فعلم المفتشون أن إسبانياً تنطبق عليه الأوصاف أمضى سنةً في نزلٍ رخيص وغادره ليلة الجريمة.

انتقال «صياد الليل» إلى منطقةٍ أخرى ساعد التحقيق كثيراً. فقد دخل شقةً في ميسيون ڤيجيو (Mission Viejo)، فقتل الرجل في فراشه واغتصب المرأة على السرير قرب الجثة، ثم ربطها ليفتّش في المنزل على حلى ومال. وقبل رحيله، اغتصبها ثانيةً. لسوء حظه، رأت المرأة من سريرها سيارة القاتل البرتقالية وحفظت لوحته عن ظهر قلب، وأخطرت الشرطة فوراً. وجد المحققون أن السيارة مسروقة من لوس أنجلوس وأمروا الدوريات البحث عنها ومراقبتها دون مهاجمة المجرم، لكن هذا تركها في مرآب بعد العملية فوراً، ليجدها المخبرون بعد يومين، فرفعوا عنها بصمات القاتل.

بعد دقائق من تلقيم الكومبيوتر في مكتب التحقيقات الفدرالية بالبصمات، ظهرت على الشاشة صورة المجرم واسمه وكل تفاصيل ملفه الإجرامي.. كان يدعى ريكاردو راميرز.

نشرت الشرطة الصورة في الصحف ونشرت الأخبار التلفزيونية. في هذا الوقت كان راميرز اشترى الكوكايين في فينيكس بالمال المسروق من ميسيون فيجو وركب حافلةً تعيده إلى لوس أنجلوس دون أن يدري أنه انكشف وأصبح عرضةً للمطاردة وهدفاً لكل شرطي في الولايات المتحدة. وصل إلى هناك سالماً، ودخل حمام محطة الباصات ليحقن نفسه بالكوكايين. كان راميرز شيطانياً مقتنعاً أن الشيطان نفسه يحميه ويمنع اعتقاله.

في الثامنة والربع صباحاً، دخل متجراً ليشتري المرطبات والسكاكر، ففوجيء بصورته على صفحات الصحف الأولى.. اهتز إيمانه بالشيطان وفرّ خارجاً خلفه صراخ الناس «هذا هو.. أوقفوه... نادوا الشرطة!!» وركض سريعاً... وفي اثنتي عشرة دقيقة، كان وصل القسم الإسباني من لوس أنجلوس.

منذ أعلنت الشرطة أن القاتل الليلي اسباني، انتشر الغضب في الجالية الإسبانية وأراد أفرادها التخلص من هذا العار الذي يطاردهم في كل مكان.

أراد راميرز الحصول على سيارة مهما كان الثمن، لكن محاولاته بسلب سيارةٍ من المارّة باءت بالفشل، خصوصاً عندما ركب موستنغ وأراد الفرار فيها دون أن ينتبه لصاحبها يصلحها، فتقاتلا وتصارعا، وفرّ راميرز.. ثم وقف في وسط الشارع صارخاً بأنجلينا دولا توريس أن تخرج من سيارتها وإلا قتلها، لكنه تركها

وأخذ يركض يلحق به جمعٌ من الناس. وُفّق مانويل زوج أنجلينا بالإمساك به وضرب برأسه الحائط، فوقع على الأرض ثم انتصب واستأنف الجري قبل أن يصلوا إليه. لكنّ عزمه لم يستمر طويلاً فانهار تحت ضربات مانويل دولا تورّيس وأصدقائه.. صدف، في هذا الوقت، وصول شرطي الدورية، ويدعى راميرز أيضاً، فترجل محضّراً القيود، وسمع القاتل يصرخ من تحت الجمع: «أرجوك، أنقذني.. أنا من تبحث عنه... لكن أنقذني منهم.. سيقتلونني».

اقتيد راميرز إلى السجن المركزي في لوس أنجلوس تحت حراسة مشددة، وعرض على المحاكمة. كانت القضية الموجهة ضدّه قويةً إذ وجدت الشرطة مسدّسه واكتشفت أنه مدمنٌ على المخدرات منذ صغره ويحترف السرقة. وبعد بحثٍ طويل، وصلت الشرطة إلى المجوهرات التي سرقها وخبأها في منزل أخته روزا.

كانت الأدلة قاطعة تدين راميرز، لكن محاميي الدفاع طلبوا نقل المحاكمة إلى لوس أنجلوس إذ أنه لن يحظى «هناك» بمحاكمة عادلة.

رفض راميرز القبول بمحامٍ تعينه المحكمة واختار دان وارنورد هيرنانديز للدفاع عنه برغم إشارة القاضي إلى أنهما لم يدخلا قبل الآن في قضية إعدام في كاليفورنيا، فقاما بطلب البراءة لموكلهما.

حاول المحاميان أن يراقبا المدعي العام، فيليب هالبين، وانتظراه ليقع في الخطأ من أجل إلغاء المحاكمة. وبعد كل جلسة، كانا يطلبان التأجيل من أجل دراسة الأدلة الجديدة، ويحصلان عليه. في هذه الأثناء، تغيرت هيئة المتهم، فجُعّد شعره واستبدلت أسنانه

لإدخال الشك إلى أقوال الادعاء. طالب «الدفاع» نقل المحكمة إلى منطقة أخرى ليتسنى لراميرز الحصول على محاكمة عادلة، فرفض الطلب لكن المحاكمة تأجّلت، واستغرقت ثلاث سنوات برغم إسراع الادعاء في تقديم أدلّته القاطعة.

كان أمل الدفاع الوحيد تأجيل المحاكمة قدر الإمكان، فطلب دانييل هيرنانديز إرجاء المحاكمة لعدة أشهر إذ هو مصاب بتعبٍ عصبي، لكن القاضي رفض ذلك، متخذاً جانب الادعاء الذي أكد أن أرتورو قادر على القيام بالواجب.

في هذه الأثناء، كان هالبين يقدم للمحامين ما يطلبون من معلومات ليكون دفاعهما مقبولاً وكي لا يعترضا ويطلبا إلغاء المحاكمة. وللهدف نفسه، عيّن القاضي مستشاراً للدفاع هو راي كلارك الذي وضع خطّة الدفاع الجديدة. تمحورت أحاديث المحامين حول الخطأ في الهوية الذي وقع راميرز ضحيته، وقدم كلارك شهادة من والد المتهم تؤكد وجوده في مسقط رأسه «آل باسو»، في المكسيك، أوان حصول إحدى الجرائم التي اتهم باقترافها.

عندما غادر المحلفون المحكمة للتداول في الحكم، كان واضحاً أنهم سيدينون راميرز. لكن الأمور لم تكن بالسهولة التي تصورها الجميع.. فالقاضي روبرت لي نحي عن القضية واستبدل بالقاضية فيليس سينغلتيري التي ذهبت ضحية جريمة بعد يومين فقط من استلامها.. فقد قتلها عشيقها بعد أن انهال عليها بالضرب..

وفي ٢٠ أيلول/سبتمبر ١٩٨٩، وبعد ٢٢ يوماً من التداول، قرر المحلفون اعتبار ريكاردو راميرز مذنباً في الجرائم التي اتهم فيها إضافةً إلى ثلاثين جنحة سرقة واغتصاب ومحاولة قتل. وفي الجدال

حول العقوبة، اعتبر كلارك راميرز مسكوناً بالشيطان أو قادته الهرمونات الفاعلة أكثر مما يجب إلى القتل، ورجا المحكمة أن تسجنه مدى الحياة بدلاً من الإعدام.. وبعد خمسة أيام إضافية من المداولات، صوت المحلفون لصالح حكمٍ بالإعدام في غرفة الغاز.

يبدو أن راميرز صنع نفسه بنفسه. فقد كان ذكياً يميل إلى التديّن.. في آل باسو كان يعرف بلقب «ريكي اللص»، وهذا أفرحه إذ أحسّ أنه «شخصٌ يحسبُ له الحساب». وعندما انتقل إلى لوس أنجلوس بدأ يحقن نفسه بالكوكايين ويسطو على المنازل ليؤمن المال. لم يكن يغتسل أبداً بل كان يمضي الوقت يستمع إلى الموسيقى الصاخبة.

لا يمكن القول إن راميرز غبي، فاختياره لمحاميه وتأخيره المحاكمة يظهران اجتهاده للبقاء على قيد الحياة أطول مدّة ممكنة قبل وبعد اعتقاله.

ما يزال راميرز على لائحة المحكومين بالإعدام لكن لن ينفذ فيه الحكم قبل عام ٢٠٠٠.

١- غزو الاشباح
٢- المشعوذون
٣- الصحون الطائرة
٤- الكوارث العالمية
٥- قصص عجيبة غريبة
٦- فضائح العائلات المالكة